موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية



جزيرة صقلية فى ظل الحكم الإسلامى: من الفتح الإسلامى حتى الغزو النورماندى

أ.د. صابر دياب





جزيرة صقلية فى ظل الحكم الإسلامى

من الفتح الإسلامى حتى الغزو النورماندى

(٢١٢-٤٨٤هـ) / (٨٢٧-١٠٩١م)

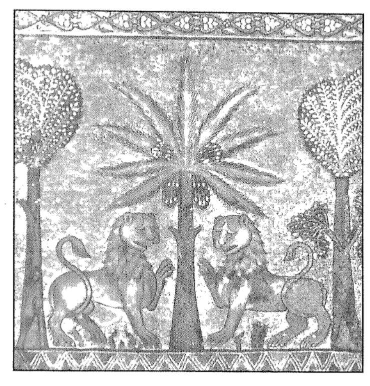
تأليف

د. صابر محمد دياب حسين

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة
جامعة القاهرة
فرعى الخرطوم، والفيوم
(حاليا: جامعة الفيوم)
سابقا: جامعة أم القرى بمكة المكرمة
جامعة الملك عبد العزيز بجده
المملكة العربية السعودية


بوق من العاج صنع صقلية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



فسيفساء على جدار القصر الملكى فى باليرمو

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

٩٤٠,١
ص ا ص ق

صابر محمد دياب حسين.
جزيرة صقلية فى ظل الحكم الإسلامى/ تأليف صابر محمد دياب حسين. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٧م.
أ-د ١١٢ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ٧).
ببليوجرافية: ص١٠٨ -١١٠ .
تدمك: ٦ - ٢١٢٠ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - صقلية وتاريخها السياسى. ٢- صقلية وتاريخها الإسلامى. أ- العنوان. ب- السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٨٣٦٣ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

مديرا التحرير: الكيميائى: أمين محمد الخضرى
المهندس: عاطف محمد الخضرى
سكرتير اللجنة: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم
التصميم والإشراف الفنى: محيى الدين فتحى الشلودى

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

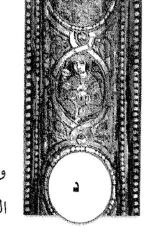
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

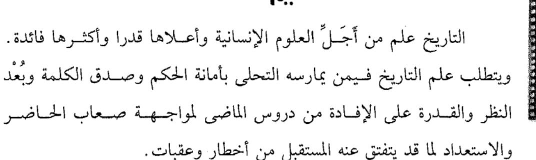
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com







تقديم السلسلة

التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

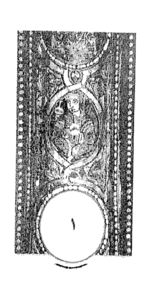
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

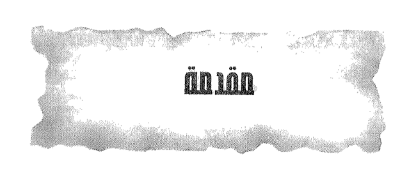
وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





جغرافية جزيرة صقلية :

ضبط «ياقوت» صقلية بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء على أن بعضهم ينطقها بالسين فيقول (سقلية). أما بالنسبة لموقع جزيرة صقلية فهى تقع فى حوض البحر المتوسط، وهى أكبر جزر ذلك البحر، وتقع إلى الجنوب من إيطاليا، وهى مثلثة الأضلاع تقريباً، وتبلغ مساحتها حوالى "٢٥٨١٥" كم٣.

ومعظم سطح جزيرة صقلية جبلى إلا أن بها سهل "كتانيا" Catania الذى يمتاز بخصوبته، وتبلغ أعلى قمة بها فى جبل "إتنا" Etna الذى يُعرف بجبل النار الذى وصفه ابن جبير بقوله : "وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة المعروف بجبل النار، فشأنه عجيب وذلك أن ناراً تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العارم، فلا تمر بشىء إلا أحرقته، حتى تنتهى إلى البحر فتركب ثبجه" .

وإجمالاً فإن سطح جزيرة صقلية يتكون من الجبال والهضاب، وأكثر جبالها وعورة هى سلسلة الجبال التى تقع فى شمال الجزيرة، والتى يبلغ ارتفاعها حوالى ٢٠٠٠ متر عن سطح البحر. ويقسم هذه السلاسل أخدود يتكون منه واديان يقسمان الجزيرة إلى نصفين، كان لهما الأثر فى تاريخ صقلية، حيث كانا ممراً للحملات العسكرية التى تعرضت لها الجزيرة طوال تاريخها. وهناك فى الشرق سلسلة جبال أخرى على الساحل؛ وجبال داخلية. أما باقى الجزيرة فهو عبارة عن هضاب وسهول صالحة للزراعة.

ومناخ صقلية معتدل كمناخ شمال أفريقيا الساحلية، وأمطارها تسقط فى الخريف والشتاء، ويندر سقوطها فى فصل الصيف ؛ وترى الثلوج على جبالها الشاهقة.

أما عن **أهم مدن صقلية** فمنها مدينة "بلرم" التى وصفها الإدريسى بقوله: "المدينة السَّنِيَّة العظمى والمحلة البهية الكبرى والمنبر الأعظم الأعلى" وكانت تعرف بالمدينة الكبرى، وكان عليها سور عظيم من حجارة، شامخ ومنيع، وهى مدينة تجارية كبرى حيث كان يسكنها التجار.

ومن مدن جزيرة صقلية مدينة "الخالصة"، التى بناها المسلمون بعد الفتح لتكون مقراً



للسلطان وأتباعه، كما كانت تضم الدواوين أيضاً، ومدينة "مسينى" التى تقع فى شرق الجزيرة، حيث اشتهرت بكثرة البساتين والأنهار الغزيرة، ومدينة "طبرمين" Tawrmenum وهى عبارة عن حصن منيع على جبل مطل على البحر. "و مدينة سرقوسة" التى تعد من مشاهير المدن وأعيان البلاد، ويقصدها التجار من جميع الأقطار، وهى تقع على ساحل البحر. وكذلك مدينة "مازرا" Mazara التى وصفها الإدريسى بأنها " مدينة فاضلة شامخة كاملة لا شبه لها، ولا مثال، وإليها الانتهاء فى جمال الهيئة والبناء، وهى ذات أسوار حصينة شاهقة، وديار حسنة فائقة" .

ومما أشارت إليه كتب الجغرافية والبلدان من مدن صقلية نجد مدنا كثيرة منها : ثرمة ـ بوقارد ـ جلفوذى ـ قلعة القوارب ـ القارونية ـ شنت ـ بقطش ـ لبيرى ـ حصن ميلاً ـ لياج ـ قطانية ـ حصن لنيتى ـ نوطس ـ طرانيش ـ جبل حامد ـ قلعة الحمة ـ قلعة أوربى ـ برطنيق ـ شنس ـ قرينش.

ومجمل القول فإن صقلية تميزت بموقعها الاستراتيجى، وأراضيها الخصبة، حيث انعكس ذلك على تاريخها السياسى والاقتصادى. فهى جزيرة لا تبعد عن الساحل الإيطالى سوى ثلاثة كيلو مترات فقط. مما أدى إلى تسابق الدول على امتلاكها حيث حكمها الرومان، ثم البيزنطيون، ثم المسلمون.

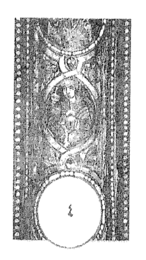


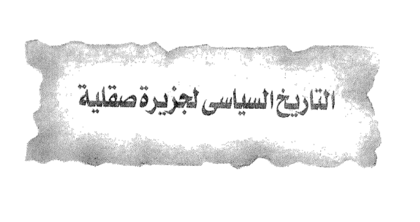
شاطئ جزيرة صقلية – منظر عام

٣

وقد وصف الجغرافيون المسلمون جزيرة صقلية، وخاصة فى ظل حكم المسلمين لها. فقال الأصطخرى عنها: «بَقْلية من الخصب والسعة، والزرع، والمواشى، والرقيق، أكثر ما يقع منها ما يَفْضُل على سائر ممالك الإسلام المتاخمة للبحر» وقال المقدسى: «إن صقلية جزيرة واسعة جَلِية ليس للمسلمين جزيرة واسعة جلية أجل ولا أعمر ولا أكثر مدنا منها» أما ابن جبير فقال عنها: «هب بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسن غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر، عتيقةً أنيقةً، مشرقةً مونقةً، تتطلع بمرأى فتان وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، عجيبة الشأن، قرطبية البنيان». أما صاحب كتاب نزهة المشتاق الشريف الإدريسى، والذى ألف كتابة المذكور فى جزيرة صقلية. فقال عنها: «إن صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن، ووحيدة البلدان طيبا ومساكن؛ وقديما دخل إليها المتجولون من سائر الأقطار، والمترددون بين المدن والأمصار؛ وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل مآبها، وما جمعته من مفترق المحاسن وضمته من خيرات سائر المواطن».

تمثال يرمز للوحدة بين إيطاليا وصقلية – من عصر الباروك



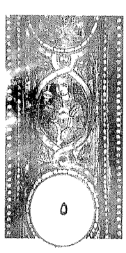


١- صقلية فى العهد البيزنطى

خضعت صقلية للحكم الرومانى فترة طويلة من الزمن، إلى أن تمكن القوط الشرقيون من الاستيلاء عليها فى سنة ٤٩٣م، ولكن لم تطل مدة استيلاء القوط عليها، فقد تمكن بلزاريوس قائد الإمبراطور الرومانى جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) من إعادة صقلية إلى حوزة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فانضمت بذلك صقلية فى سنة ٥٣٥ م إلى أملاك الإمبراطورية البيزنطية بمساعدة الصقليين أنفسهم.

قد اعتبر القوط هذا التقلب فى عواطف الصقليين وترحيبهم بالبيزنطين نكرانا للجميل. إذ كان الصقليون قد رجوا الملك ثيودريك القوطى (رودريك) أن يعفى بلدهم من الحاميات والفرق العسكرية، فأجابهم إلى طلبهم، وترك شئونهم فى أيديهم. وكانت عاقبة هذا التسامح أن خذلوا القوط وتنكروا لهم أمام الفاتح الجديد، فلم تدافع مدينة عن نفسها ولم يتظاهر السكان بأنهم مغلوبون على أمرهم، بل إنهم عندما شهدوا تلك القلة الضئيلة يقودها بلزاريوس تظاهروا فيما بينهم لإظهار الولاء لبزاريوس وسيّده. " ولم تطل الفرحة بالصقليين فسرعان ما وجدوا أنفسهم يدفعون الضرائب الفادحة لخزينة الإمبراطور، وعين جستنيان للجزيرة حاكما "بريتورا" من الدرجة الثانية، وجعل منها ومن دلماشيا ولاية واحدة، وخضعت صقلية للأنظمة التى فرضها جستنيان على ما فتحه فى الغرب. تلك الأنظمة التى جرّت التعاسة على كل من إفريقية وإيطاليا. فأقفرت البلاد من سكانها، وتركت الولايات دون حماية، وأصبح حكمها سيئا، ورزحت البلاد تحت عبء الضرائب والاضطهاد الدينى والثورات العسكرية.

أما عن حال الجيش فخير ما يصور لنا بؤس جزيرة صقلية حينئذ أن العساكر البيزنطية كانت كالمجتمع نفسه أخلاطا من شعوب شتى، لا يمكن أن تنبت فى صدورهم محبة الوطن. كما ضعف العنصر الإغريقى الذى كان يمثل عصب الإمبراطورية، وغرقوا فى الخرافات والأساطير،



وأخذوا يتهربون من الجندية، ويدفعون الفدية عن أنفسهم، فأصبح التجنيد وقفا على البرابرة وسكان الحدود، ولم تكن الموارد الاقتصادية تكفى لتمد الجيوش بما نقوم بحاجاتها، مما ألجأ القادة والحكام إلى طرق خطيرة النتائج، فكان القائد مثلاً يعهد بأرضه إلى جماعة من الجنود كى يفلحوها ويفيدوا من حاصلاتها. ودخل فى صفوف الجيش جماعة من الفقراء الذين رضوا أن يتقاضوا أجراً قليلاً، وحل هؤلاء بجهلهم محل العسكريين أصحاب الدربة القديمة. وهكذا تحول الجند إلى حاشية للقائد، ولم يعودوا أداة لكبح جماح الطغيان، بل أصبحوا أداة لإحلال طغيان محل آخر.

وأما الضرائب فكانت جزيرة صقلية -كغيرها من ولايات الدولة البيزنطية- فريسة لجشع المحصلين ، تدفع ضريبة على الأملاك، وأخرى على الرؤوس، وإتاوات على التجارة والصناعة، وزيادات إضافية على الضريبة الأولى، وضرائب للجند، وأخرى للملاحين وأموال يبتزها الموظفون ويزيدون بها الحِمْلَ ثُقْلاً. وإذا كانت الحال سيئة فى أيام القوط ، إلا أنها زادت سوءاً أيام البيزنطيين حتى أن أحد الجباة فى نهاية القرن السادس الميلادى أجبر الرعايا العاجزين عن دفع المال على تقديم أبنائهم، واستطاع موظف تافه الشأن فى صقلية أن يصادر الممتلكات بالقوة؛ ولذلك يقول القديس جريجوريوس : «نحتاج إلى مجلد لنفصل الجَوْر الذى سمعنا به من هذا القبيل».

ولم تكن الدولة البيزنطية هى المستغل الوحيد لصقلية، بل كانت الكنيسة أيضا تشاركها النفوذ والسلطان لكثرة أملاكها فيها. فكان لكنيسة روما وميلانو ورافنا إقطاعات كثيرة، وكانت أملاك كنيسة روما موزعة فى أنحاء الجزيرة حول سرقوسة وقطانية وميلاً وبلر وجرجنت، وكان يديرها رئيسان أحدهما فى سرقوسة والثانى فى بلر.

وكان فى الأراضى الكنسية فلاحون يسمون القولونيين ، وهم طبقة تشبه العبيد فى ارتباطها بالأرض وتدفع الضرائب نقداً أو محصولات.

وقد ظلت صقلية - كما كانت من قبل تسمى - " أهراء روما " يسافر منها كل عام أسطولان محمّلان بالقمح، مرة فى الربيع وأخرى فى الخريف، وإذا غرقت المؤن فى البحر أو نُهِبَت قبل وصولها، طولب الكولونيون بالتعويض.

هذا بالإضافة إلى أن جامعى المحصول كانوا يتلاعبون بالمكيال ويزيدون فى نسبة الضريبة المقررة. فلما اعتلى جريجوريو الأول كرسى البابوية سنة ٥٩٠ م ورأى سوء الحال حاول أن يصلحها جهده. وفى الثمانية عشر شهراً الأولى من رئاسته كتب أربع عشرة رسالة إلى وكيل له بصقلية اسمه بطرس يحاول أن يذكّره بضرورة النظر فى تظلمات الناس وإنصافهم وتحقيق العدالة

٦

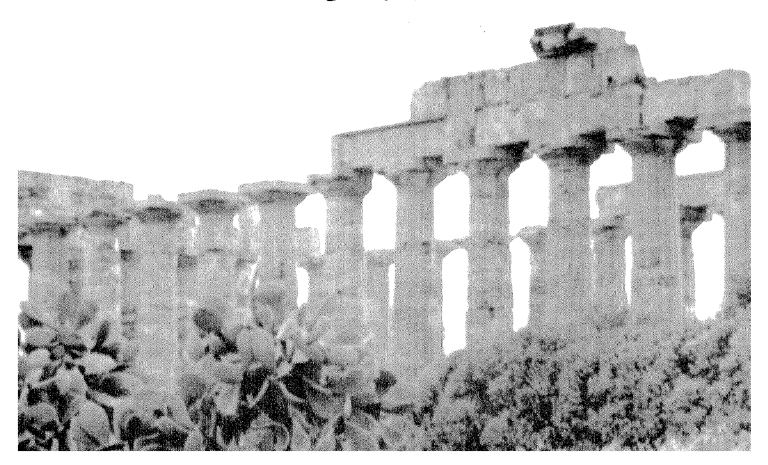
فيهم ،بأن يرجع نسبة الضريبة إلى الحد المقرر، ويكثر المكاييل الكبيرة، ويصدر لكل فلاح فـى أراضى الكنيسـة دفتر ضـمان يقـيد فيـه ما يدفـعه من ضـريبة مـشروعـة. ومن هذه الرسائـل يتبـين لنا الحيف الـذى كان يصـيب طبقـات الفلاحين.

وكان المشرفون على أراضى القديس أبولـنا رس حامى رافنا يبعثون كل سفيـنة محملة بمئات القناطيـر من القمح ، والفواكه ، والخـضروات، والجلود المدبوغـة باللون الأرجوانـى، ومحـملة بالحـرير اللاذوردى ، والمواد الشتـوية وغيرها ، وكلها كانت توفر للكنيسة دخلاً هائلاً.

وفى أواخر القرن السـابع الميلادى أصبحت الجزيرة حصـناً يدفع العدوان عن الجناح الغربى للإمبراطورية ، وثغراً بين عـدوين قويين، وسمح لها أن تستقل نوعاً فى تـنظيم قوتها العسكرية. فأصبح لحاميتها تحت رياسة قـائدها الأعلى نفوذ واسع، ولكن هذه الحامية كانت غريبة تدافع عن غير وطنها. إذ لم يشـترك فيها الشعب الصقلى، بل عـاش ضحية لها أو متفـرجاً، وحينا يصفق وحينا آخر يعانى ويبكى، ولكنه لم يبادر إلى حمل السلاح أبدا.

تلك كانت حال الجزيرة بين أطماع الحكومة والكنيسة وفساد حال الجيش. ومن ثم لم يكن المجتمع الصقـلى فى ظل الدولة البيزنطية مجتـمعاً سعيداً ناهضـاً وكانت الجزيرة تضم خليطاً من

آثار المعابد الرومانية فى صقلية



الأجناس، أهم عناصره الإغريق والطليان، وإلى جانبهم جماعات من اليهود تميزوا منذ البدء بانكماشهم على أنفسهم، ولكنهم لم يكونوا كثيرى العدد.

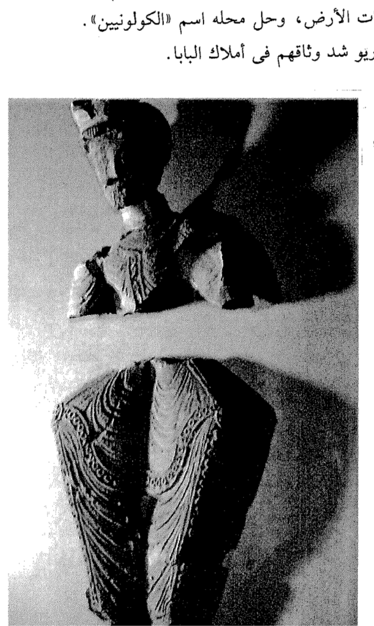
وقد حاول البابا جريجورى أن ينصفهم ويرفع عنهم الاضطهاد ، كما حاول أن يُغْرِيَهُمْ بالتنصر حين كلف وكيله فى صقلية بحط الضرائب عنهم إن هم فعلوا (أى إذا تنصّروا). ولما استولى أسقف بلرم على معبد اليهود وحوله إلى كنيسة، عد جريجورى هذا العمل حيفاً، وأمر الأسقف بأن يدفع ثمن المعبد، حيث كان ردُّه إلى حاله الأولى عسيراً. وأضافت الحكومة إلى هذه الآجناس بعض المنفيين، إذ كانت تعتبر صقلية منفى للمذنبين والمجرمين والعساكر المتمردين.

وقد امتلأت الجزيرة بالعبيد الذين كثروا بما انضم إليهم من أسرى وملاك صغار عجزوا عن الفلاحة لما بهظتهم الضرائب. فهربوا والتمسوا لهم منازل فى مزارع الأغنياء ودفعوا حرياتهم ثمناً لذلك. وبعد فترة بدأ يقل ورود لفظ العبيد فى سجلات الأرض، وحل محله اسم «الكولونيين». ولم تحاول الكنيسة أن تصلح من حالهم، بل إن جريوريو شد وثاقهم فى أملاك البابا.

٢- الفتح الإسلامى لصقلية

ارتبطت الحملات الإسلامية على صقلية بنمو البحرية الإسلامية، والصراع القائم بين المسلمين والروم فى البحر المتوسط. وقد بدأت البحرية الإسلامية فى الظهور منذ أن انتصر المسلمون على البيزنطيين فى معركة «ذات الصوارى» الفاصلة التى وقعت سنة ٣١هـ / ٦٥١م زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه، والتى كانت سبباً من أسباب السيادة الإسلامية على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط.

أما أول ذكر لغزو جزيرة صقلية فى المصادر الإسلامية، فكان فى سنة ٣٢هـ / ٦٥٢م. حيث



بقايا تمثال يُقال أنه (هشام بن عبد الملك بن مروان) متحف دمشق



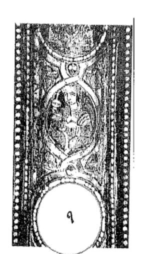
ذكر البلاذرى أن معاوية بن خديج الكِنْدى؛ غزا صقلية مرسلاً من قبل معاوية ابن أبى سفيان أيام إمارته على الشام زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأن تلك الحملة هجمت على معاقل الروم فى صقلية ثم عادت.

وبعد قيام الدولة الأموية سنة ٤١هـ / ٦٦١م بدأت الغزوات على صقلية. فتذكر المصادر أن والى إفريقية معاوية بن خديج، أرسل قيس بن عبد الله الفزارى فى مائتى مركب إلى الجزيرة، فسبوا وغنموا، وأقاموا شهراً ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة وأسرى وأصنام منظومة بالجواهر. وكان ذلك سنة ٤٦هـ/٦٦٦م فى خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦١- ٦٨٠م). وفى سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م، كان لعقبة بن نافع الفهرى غزوة ضد الروم فى البحر، إذ تذكر المصادر أنه : «شتا بأهل مصر». ويؤكد لويس أرشيبالد أن تلك الحملة كانت على جزيرة صقلية.

كما كان لموسى بن نصير دور فى فتح جزيرة صقلية، وبناء البحرية الإسلامية. قال ابن أبى دينار :«قيل أن موسى بن نصير القرشى، هو الذى خرق البحر إلى تونس، وبنى دار الصناعة، ووضع بها مائة مركب وغزا صقلية».

ومن الحملات التى أمر بها موسى بن نصير تلك الحملة التى قادها ابنه عبد الله، واتجهت إلى صقلية سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م، وسميت تلك الغزوة «بغزوة الأشراف» نظراً لكثرة الشخصيات المرموقة المساهمة فيها، وتكللت تلك الحملة بالنجاح. كما أرسل موسى بن نصير حملة أخرى إلى صقلية فى سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م بقيادة المغيرة بن أبى بردة فى عدد من المرات. ثم يرسل موسى بن نصير حملة أخرى فى نفس السنة إلى مدينة سرقوسة بجزيرة صقلية بقيادة عياش بن أخْيَل، حيث عادت تلك الحملة بغنائم كثيرة.

وبعد سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م لا نجد ذكراً فى المصادر لغزوات على جزيرة صقلية حتى بداية القرن الثانى الهجرى. ولعل سبب ذلك التوقف هو أن المسلمين فى إفريقية كانوا قد انشغلوا بفتح الأندلس مما جعل من الصعب على الجيش الإسلامى أن يقاتل على جبهتين فى وقت واحد واستمر ذلك التوقف إلى سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠م ، حيث أرسل يزيدُ بن أبى مسلم الأنصارى والى إفريقية، محمدَ بن أوس الأنصارى، على رأس حملة إلى صقلية مستغلاً بذلك المشكلات التى واجهت بيزنطة بسبب تمرد حاكم صقلية وعصيانه سنة ١٠٠هـ / ٧١٨ م. ولكن تلك الحملة سرعان ما عادت إلى إفريقية بسبب مقتل يزيد بن أبى مسلم الأنصارى على يد حرسه من البربر، أثناء تأديته لصلاة المغرب، حيث تولى محمد بن أوس أمر إفريقية، إلى أن وصل إليها الوالى الجديد من قِبَلِ الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك (١٠١هـ / ٧١٩ م - ١٠٥ هـ / ٧٢٣م).



وفى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ / ٧٢٣م - ١٢٥ / ٧٤٢م)، قام بشر بن صفوان والى إفريقية بغزو صقلية سنة ١٠٥هـ/ ٧٣٣، وذلك قبل موته بقليل، وأصاب من غزوته مغانم كثيرة وأسر خلقاً كثيراً. وأما والى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السُّلَمى فقد بعث عدة حملات إلى صقلية. حيث أرسل عثمان بن أبى عبيدة على رأس سبعمائة رجل، وقصد مدينة سرقوسة، إلا أن القائد أُسر فى هذه الغزوة سنة ١١٠هـ / ٧٢٨م.

كما أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك حملة أخرى بقيادة المستنير بن الحارث وذلك فى سنة ١١٠هـ / ٧٢٨م، حيث مكث القائد بصقلية إلى أن حل الشتاء، ثم قفل راجعاً.

واستمر والى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن فى إرسال الحملات إلى صقلية، ففى سنة ١١٢هـ / ٧٣٠م بعث ثابتَ بن خثيم على رأس حملة إلى صقلية، فأصاب منها أسرى وغنائم وعاد سالماً، كما بعث فى سنة ١١٣هـ/ ٧٣١م ـ أحد قادته وهو عبد الملك بن قطن على رأس حملة إلى صقلية، غنمت وعادت سالمة. ثم عاد عبد الملك بن قطن على رأس حملة أخرى إلى صقلية فى سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م، وعاد أيضاً من غزوته تلك سالماً غانماً. وفى سنة ١١٥هـ/ ٧٣٣م كانت آخر الغزوات على صقلية فى أثناء ولاية عبيدة بن عبد الرحمن على إفريقية، حيث أرسل بكر بن سُوَيِّد على رأس حملة إلى صقلية واشتبك مع الروم فى البحر فرموا مراكبه بالنار وأحرقوا بعض سفنه.

وفى ولاية عبيد الله بن الحبحاب، على إفريقية تتابعت الحملات لفتح صقلية، ولكسر شوكة الروم فيها. ففى السنة التى تولى فيها ابن الحبحاب إمارة إفريقية (١١٦هـ/ ٧٣٤م) أرسل حملة إلى الجزيرة بقيادة عثمان بن أبى عبيدة حيث اقتتل مع الروم قتالاً شديداً، انهزم الروم على أثره. ولكن أُسِرَ عدد كبير من المسلمين كان من بينهم عمر وسليمان ابنا القائد عثمان بن أبى عبيدة. ثم أرسل ابن الحبحاب حملة أخرى فى سنة (١١٨هـ/ ٧٣٦) بقيادة قثم بن عوانة الكلبى حيث أصاب من غزوته تلك وعاد سالماً غانماً.

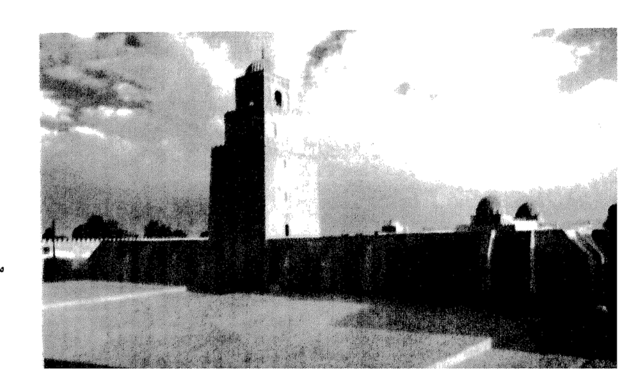
أما أهم الحملات على صقلية فى العصر الأموى، فكانت تلك الغزوة التى قررها عبيد الله ابن الحبحاب، وكلف بها حفيد فاتح المغرب حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى. وكانت تلك الغزوة فى سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م، وأشرك فيها حبيبُ بن أبى عبيدة ابنَه عبدَ الرحمن فى قيادة فرسان الجيش، حيث تمكن من هزيمة كل من كان فى طريقه، وحقق انتصارات عظيمة، حتى تمكن من حصار مدينة سرقوسة إلى أن صالحوه على الجزية. واستمر حبيب وابنه عبد

الرحمن فى قتال الروم بصقلية محرزين الانتصارات، إلى أن وصلهم كتاب عبيد الله بن الحبحاب يستدعيهم فيه إلى إفريقية لقمع ثورة ميسرة السقاء الخارجى، حيث تمكن منه حبيب بن أبى عبيدة بعد عودته من صقلية.

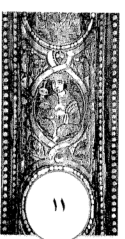
ومن الحملات الموجهة أيضاً إلى صقلية تلك الحملة التى قادها عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع، فى سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٧م، تمكن فيها من فتح بعض معاقل الروم وغنِمَ وعاد سالماً. وفى سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٢م غزا عبد الرحمن بن حبيب صقلية كأول غزوة عليها وقعت فى العصر العباسى. . وكان القائد عبد الرحمن بن حبيب قد بلغ الذروة فى عظمته. قال ابن عذارى: «وخلف ابنه حبيباً على القيروان، فغزا تلمسان، فظفر بطوائف من البربر، وعاد إلى القيروان، ثم أغزى صقلية، ثم بعث سردانية، فقتل من بها قتلاً ذريعاً».

ثم توقفت الحملات الإسلامية على صقلية بعد سنة ١٣٥هـ / ٧٥٢م فترة طويلة من الزمن، فلم تُغْزَ صقليةُ بعد ذلك إلا فى مطلع القرن الثالث الهجرى. ففى مستهل عام ١٨٤هـ (٨٠٠م) وجه الخليفة العباسى «هارون الرشيد» إلى ولاية إفريقية، إبراهيم بن الأغلب - رأس الأسرة الأغلبية - الذى اهتم بتدعيم السلطة الإسلامية فى هذه الولاية، كما عُنِيَ بإنشاء الأساطيل لمد النفوذ الأغلبى عبر البحر المتوسط.

ومن ناحية أخرى، فقد بات واضحاً أن القسطنطينية، لم يعد لها القدرة أو القوة الكافية، لصد غارات المسلمين على جزيرة صقلية، أو استعادة جزيرة كريت وقتذاك، أو حماية جزر بحر إيجه والسواحل، التى تعرضت لغارات المسلمين البحرية بصفة مستمرة، سواء من جزيرة كريت بعد فتحها سنة ٢١٢هـ - أو من القوات الإسلامية فى الشام ومصر.



مسجد مدينة القيروان



وكانت جزيرة صقلية ضمن المناطق التى شملتها الهدنة التى عقدت بين الأمير إبراهيم بن الأغلب، وبين حاكم (أو بطريق) الجزيرة سنة ١٨٩هـ (٨٠٤ - ٨٠٥م). ولكن على الرغم من أن الهدنة جُدِّدَتْ لعشر سنوات أخرى تبدأ من عام١٩٧/ ١٩٨هـ (٨١٣م)، إلا أن أثرها كان فيما يبدو معدوماً. لأنها لم تمنع مسلمى شمال أفريقيا وبحريتهم من القيام بغارات متعددة على جزيرتى كورسيكا وسردينيا، فيما بين سنتى ١٩٥ ، ١٩٨هـ. ورغم أن خسارة المسلمين فى هذه الإغارات كانت كبيرة ؛ إلا أنها حفزتهم إلى مهاجمة صقلية سنة ٢٠٥ - ٢٠٦هـ (٨٢٠م).

ونظرا لأن الظروف التى أحاطت بالأغالبة كانت تحتم عليهم إعداد جيش قوى، والاهتمام ببناء المراكب الحربية وإعداد القوات البحرية، حتى يمكن تنفيذ مخططهم الذى كان يرمى إلى فرض سيادتهم على الحوض الأوسط للبحر المتوسط، مدفوعين إلى ذلك باعتقادهم أنه جهاد فى سبيل الله. فعملوا على إعادة بناء الأسطول الإسلامى بشمالى أفريقيا، وأقاموا دوراً لصناعة السفن فى مدينتى ترشيش (تونس حالياً)، وسوسة، ودعموها بمهرة الصناع. وبهذا أصبح لديهم أسطول قوى، يستطيع مواصلة الفتوحات الإسلامية فى الحوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط، وكان فتح صقلية من أهم هذه الفتوحات.

على أن الطريق إلى صقلية لم يكن ميسوراً، بل اكتنفه الكثير من الصعاب والعقبات، وخاصة أن الغزوات والسرايا التى اتجهت إلى الجزيرة من قبل - ابتداء من سنة ٢٣هـ (٦٢٥م) (٨١٣ - ٨١٤هـ) - نبهت الروم إلى المناطق التي يرمي المسلمون إلى السيطرة عليها فى البحر المتوسط. فأعدوا للأمر عدته وحصنوا جزيرة صقلية، حيث جعلوا منها قاعدة حربية أمامية لأسطولهم، الذى ترابط وحداته فيها لحماية الإمبراطورية البيزنطية. وصارت سفنهم تخرج كل عام لتطوف بالجزيرة، فضلاً عن مراقبتهم تحركات أسطول الأغالبة، وأساطيل سورية ومصر فى شرق المتوسط، وأسطول الأمويين بالأندلس.

ثم كانت سياسة بيزنطة فى صقلية من العوامل التى أدت إلى قيام ثورة يوفيميوس Euyphi-mius - قائد الأسطول البيزنطى فى هذه الجزيرة -.

إذ وقع الخلاف بينه وبين واليها البيزنطى قسطنطين بن بطريق، فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثانى. فحرض يوفيميوس الأغالبة على دخول الجزيرة وفتحها ووعدهم بالمساعدة نكاية فى واليها البيزنطى، على أن يكون بعد فتح الجزيرة تابعا للأغالبة فى إفريقية. وهكذا كانت هذه الظروف فرصة مواتية ليبدأ الأغالبة تنفيذ خطة فتح جزيرة صقلية، منتهزين فرصة استنجاد يوفيميوس بهم.



وقد ذكر ابن الأثيـر أن الأغالبة أرسلوا - بناء على طلب يوفيـميوس - حملتهم الأولى بقيادة أسد بن الفرات، وحقيقة الأمر أن الأغالبة كان قد استقر رأيهم على غزو جـزيرة صقلية، لأهمـيتها بالنسـبة لسواحل شـمالى الأندلس أفريقيـا ، وفى نفس الوقت كان الأغالبة قد اسـتقر حكمهم وأصبـحوا قادرين على فتح جزيرة صقلية.

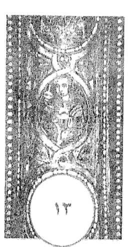
لم يكن من السهل على زيادة الله الأول، أمير الأغالبة، أن ينفرد بالبت فى هذا الأمر. ولذلك جمع وجـوه أهل القيروان وفقهاءها، وكـان فيهم أسد بن الفرات، وسحنون بن سعيد بن قادم الفقـيه. ولما بحث المجتمعون موضوع فتح صـقلية، انقسـموا إلى فريقـين: فريق لا يؤيد الغزو ولا يوصى به، وفـريق متحـمس للغزو ويعدّه ضرباً من ضروب الجهاد فى سبيل الله. وقد انتهى الأمر إلى تغليب كفة الفريق الثانى.

وهكذا أصبح فتح صقلية هو شغل الأغالبـة الشاغل منذ ذلك الوقت، رغبة فى ضمها إلى حوزتهم. فرأى أسـد بن الفرات - قاضى قضاة إفـريقية - التحلل من الهدنة السـابق عقدها سنة ١٨٩هـ وجددت سنة ١٩٨هـ لعـشر سنوات حين أقـر رسل الروم الوافدون من طرف أيفيمـيوس بوجود أسرى من المسلمين لديهم فى جزيرة صقلية، وعهـد إليه أمير الأغالبة أبو محمد زيادة الله الأول فى ذى الحجة ٢١٠هـ بقيادة الحملة التى أعدها لفتح الجزيرة.

ومما يدل على أن فتح جـزيرة صقلية كان متـسما بطابع الجهاد فى سـبيل الله، أن تخطيط الفتح، والتفكير فيـه، كان بفضل أسد بن الفرات - قاضى قضاة إفريقـية - الذى قاد بنفسه أولى حملات الفتح سنة ٢١٢هـ.

أبحر أسطول الأغالـبة من قاعدته فى سوسـة، فى ربيع الأول (٢١٢هـ -٤ يونية ٨٢٧م)، وكان مكونا من مائة مركب تحمل ما بين سبعمائة وألف فارس، عدا عشرة آلاف راجل، من الجند العرب والبـربر ومن الفرس الخراسانـية والأندلسيين، وهكذا تتكـرر أحداث التاريخ فإذا بصـقلية تُغزى وتفتح ثانياً من إفريقيا كما غـزيت من قبل على يد الفنيقيين، ويدخل جيشُ أسد بن الفرات الجزيرةَ من حيث دخلها الفنيقيون من قبل. وها هى جـموع المسلمين تقاتل كما قاتلت من قبل ، وتحمل دينا تنشد نشر تعاليمه وبسط سيادته وألويته على الجزيرة.

لما وصلت حملـة الأغالبة بقـيادة أسد بن الفـرات إلى صقلية، اشـتبكت مع قـوات حاكم الجزيرة السـبيزنطـى فى قتال، وحـلت الهزيمـة بالروم فى أول صدام لهم مع المسلمـين على أرض الجـزيرة، وضيق أسـد وجنده عليهـا الخناق- مسـتعـينا بإمـداد من الأندلس- وصل أسطول من القسطنطينية لـنجدتها، بينما كان الوباء قـد تفشى فى المسلمين وهلك من جرائه كثـيرون كان من بينهم أسد بن الفرات نفسه.



ولما رأى المسلمون ما حل بهم من وباء نزلوا فى مراكبهم، فمنعهم الروم من الخروج، وعندئذ أحرق المسلمون مراكبهم، وقصدوا مدينة ميناو، فحاصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن.

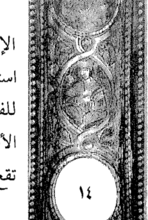
ولكن على الرغم مما لحق المسلمين من خسائر، ووفاة قائدهم (أسد بن الفرات) فإنهم واصلوا القتال، وولوا عليهم «محمد بن أبى الجوارى» - أو الحوارى - واستطاعوا بتماسكهم أن يستولوا على بعض الحصون منها حصن «مازرة» وميناو أو مينو، وجرجنت.

ولم تستطع الدولة البيزنطية بذل جهود كبيرة للدفاع عن صقلية، إلا بمقدار ما سمحت به مشاكلها الداخلية. ولذلك اعتبرت أحداث الفتح الإسلامى بجزيرة صقلية، فى المرتبة الثانية بالنسبة لأراضيها فى الشرق، التى كانت عرضة لتهديد العباسيين. ولكن ليس معنى هذا أنهم أهملوا مسئولية الدفاع عن صقلية، وإنما كان وضع دولتهم وقتذاك يحتم عليهم تركيز جهودهم لدرء الأخطار التى يتعرضون لها من ناحية حدود آسيا الصغرى الجنوبية.

وقد تجلى اشتباك قوات الروم البحرية مع قوات المسلمين فى حصار سرقوسة فأسهم الأسطول البيزنطى فى الدفاع عن هذه المدينة، وألحق بالمسلمين كثيرا من الخسائر، كما تفشى فيهم الوباء، واضطروا إلى الانسحاب منها، وعوضوا خسارتهم أمام سرقوسة بفتحهم مدينة بلرم سنة ٢١٦هـ ، بعد وصول الإمداد من إفريقية.

وكان فتح مدينة بلرم Panarnwus خطوة كبيرة، مهدت السبيل لفتح سائر مدن الجزيرة فيما بعد، فليس هناك ما يعوق اتصالها بإفريقية. وبذلك أصبح فى استطاعة الفاتحين أن يحصلوا على مُؤَنهم وعتادهم باستمرار وفى يسر وأمان. ثم إن المنطقة المحيطة ببلرم خصبة، يمكنها سد حاجة المسلمين من المؤن والميرة. ومن ثم اتخذ المسلمون من بلرم قاعدة لهم، وبنوا لهم بها دارا لصناعة السفن. كما أخذت السرايا تخرج منها كل يوم فتغير على أنحاء جزيرة صقلية، ثم ترجع محملة بالغنائم والأسرى.

وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التى واجهها المسلمون فى فتح مدن وحصون جزيرة صقلية، فإنهم تابعوا حملاتهم عليها. ففى سنة ٢١٧هـ - أى السنة التالية لسقوط بلرم - سار «أبو فهر بن محمد بن عبد الله التميمى» من إفريقية إلى صقلية غازيا، بعد أن هزم مطيع السهمى ابن الصمصامة، ثم قصد المسلمون قصريانة، لكنهم لم يتمكنوا من فتحها، وأخذوا يرسلون إليها الحملة تلو الحملة، ولم يزالوا يواصلون نشاطهم حتى توفى «زيادة الله الأول» ابن الأغلب سنة ٢٢٣هـ (٨٣٨م).



غـير أن المسلـمين بصـقليـة لم يتـمكنوا على الرغم من توالى إرسـال الإمدادات إليـهم من إفريـقية من الاسـتيـلاء على الجزيرة كلهـا آنذاك؛ لذلك استمرت حملات الأغالبة البحـرية، تغزو مدن هذه الجزيرة وحصونها حتى تم للفضل بن جعفر الهمدانى سنة ٢٢٨هـ - فى عهد إمارة أبى العباس محمد بن الأغـلب - الاسـتيلاء علـى مدينة مسـينا (messina)، وهى مدينة حصينة تقع شمالى شرق صقلية.

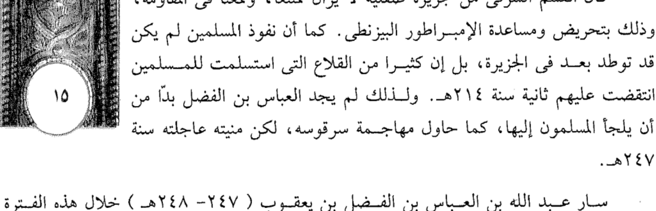
وبدخول القـوات البحريـة للأغالبة، إلى مـسينا، أصبح جـنوب إيطاليا مهـددا من ناحيتهم، ولعل هذا مما حـمل نابلى على التحالف مع الأغـالبة فى ذلك الوقت. ومع ذلك استمرت حـركة الفتوحات فى صقلية فـيما بين سنتى ٢٣٢، ٢٤٠هـ أيام الأمير محمد الأغالبى، ففتحت مدينة قطانية وغيرها فى الجانب الشرقى لصقلية

ثم تمردت مسـينا فى عهد مـحمد الأول (٢٢٦- ٢٤٢هــ) بعد فتـحها. واسـتنجدت سنة ٢٣٢هـ، بالإمبراطور البيزنطى الذى وعد أهلها بالمساعدة. فلما علم المسلمون بذلك شددوا عليها الحصـار بقيـادة الفضل بن جـعفر، حـتى خضـعت كل من مسـينا ولنتينى التى تقع بين قـطانية وسرقوسـة، فى الجانب الشرقى للجزيرة، وانتهى الأمـر بخضوعها للحكم الإسـلامى. واستسلم أهل لنتينى مثلمـا خضع أهل مسينا من قبل، كـما سلمت قصريانة التى تعـرضت فى العام التالى (٢٣٥هـ) لحملة بحرية إسلامية لم يكن غرضهـا سوى الإغارة، واختبار قدرة المدينة على الصمود والدفاع.

ولما توفى الأمير «محمد الأول الأغالبى» سنة ٢٤٢هـ، خلفه " أبو إبراهيم أحمد بن محمد الأغلب، (٢٤٢ - ٢٤٩هـ). وفى عهده استمرت حركة الفـتح الإسلامى لمدن صقلية وحصونها، فتابع قواده البحريون وعماله على الجزيرة العمل على إخضاع باقى نواحيها.

والحقيقة أن الفتح الإسلامى لجزيرة صقليـة لقى مقاومة شديدة من القوات البحرية والبرية، التى كان يقـودها حاكم الجـزيرة البيزنطى، فـضلاً عن الأسطول البـيزنطى الذى كان يرسـو أمام الجزيرة. وكانت أعنف مقاومـة لقيها المسلمون فى فتح صقلية، فى حـملاتهم على مدن قصريانة وسرقوسة.

ظل المسلمون يواصلون العمل على إتمام فتح جزيرة صقلية، حتى تيسر لهم الاستيلاء على قصريـانة سنة ٢٤٤هـ. وكان لسقوط هذه المدينة فى يد المـسلمين أثر سيئ فى نفوس البيـزنطيين، فأرسلوا أسطولاً من ثلاثمائة مركب، مشـحونة بالعسكر، ومقاتلة البحر، إلى سرقوسـة ليهاجموا المسلمين منـها، وليثـأروا لما حل بهم فى قصريانة. لكن المسـلمين كانوا يراقـبون كل التحـركات



البيزنطية، فـفاجأوا الأسطولَ البيزنطىَّ القادمَ لمحاربتهم، ولم يتـركوا له فرصةً للدفاع وأوقعوا بهم الهزيمة ، وغنموا منه نحو مائة مركب حربى.

كان القسم الشرقى من جزيرة صقلية لا يزال ممتنعاً، وممعنا فى المقاومة، وذلك بتحريض ومساعدة الإمبـراطور البيزنطى. كما أن نفوذ المسلمين لم يكن قد توطد بعـد فى الجزيرة، بل إن كثيـرا من القلاع التى استسلمت للمـسلمين انتقضت عليهم ثانية سنة ٢١٤هـ. ولـذلك لم يجد العباس بن الفضل بدّا من أن يلجأ المسلمون إليها، كما حاول مهاجـمة سرقوسه، لكن منيته عاجلته سنة ٢٤٧هـ.

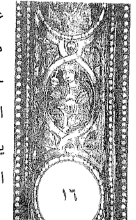
سـار عـبد الله بن العـباس بن الفـضل بن يعقـوب (٢٤٧- ٢٤٨هـ) خلال هذه الفـترة القصيرة التى تولى فيها ولاية صقلية للأغالبة، ومن بعده خفاجة بن سفيان على نفس نهج العباس بن الفضل فى بث السـرايا. ففى سنة ٢٥١هـ كانت غـزوة السرية المعروفة، «بسـرية ألف فارس» وذلك أن خفاجـة بن سفيان - والى صـقلية فى إمارة «أبى الغرانيق» محـمد بن أحمد بن مـحمد الأغلب - غزا قصريانة، فأفسد زرعها، وسار إلى سرقوسة، فقاتل أهلها، ثم رحل عنهم، وأنفذ ابنَه محـمد إليهم بسـرية، فكَمِنَ لهم، وقتل منهم مـا يقارب ألف فارس، ومن ثم سـميت تلك السرية «سرية ألف فارس».

وفى العـام التـالـى سنة (٢٥٢هـ) غـزا خفاجة بنفسه، أرض الروم بصـقلية، وافتتح بها حصونا كثيرة، ثم لَقِىَ حـملة بيزنطية فأوقع بها الهـزيمـة، وغنم المسلمـون كـثيـرا من أسلحـة البيزنطيـين وخيولهم. وتمكن خفـاجة من دخول مدينة سرقوسة، وغنم منها مغانم كثيرة. لكنه ما لبث أن عاد إلى بلرم، قـاعدته التى خـرج منها منذ أول رجب سنة ٢٥٢هـ.



بقايا الحصون الرومانية والمعابد

ولقد ظلـت مدينة سرقـوسة تقـاوم نحو نصف قرن (من٢١٣حتى ٢٦٤هـ)- وكان أسد بن الفرات يظن أنه يـستطيع فتـحها فى حـملته على صـقلية سنة ٢١٣هـ. لكن مـقاومـتهـا لم تضعف إلا حين اسـتطاع جعفر بن مـحمد والى صقلية فى بلرم سنة ٢٦١هـ (٨٧٥م) أن يستولى



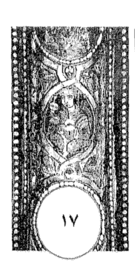
على بعض أراضيهـا، ولما وصلت إليها مراكب الروم أصابـها المسلمون وتمكنوا من حصارها على فترات متقطعة- من سنة ٢٦١إلى سنة ٢٦٤هـ - كان آخرها حصار التسعة أشهر، بقـيادة أحمد بن الأغلب الذى سقطت بعده المدينة فى يد المسلمين. وذلك بعـد أن عانى سكانها من ويلات الحصار الـشىء الكثير، ولم يفدهـم المدد البيزنـطى شيئـا، لأن سـرقـوسـة سـقـطـت فـى يـد الفـاتحين المسلمين فى شهر رمضان من عام ٢٦٤هـ (٨٧٧/ ٨٧٨ م).

كان لسقـوط سرقوسة سنة ٢٦٤هـ أثر بالغ فى نفوس البيـزنطيين. وقد قامت الحـملة التى حاصرت هذه المدينة بهـجوم على مدن قطانية، وطبـرمين، ورمطة، وغيـرها من بلدان الجزيرة التى كانت ولا زالت بيـد الروم، حتى يضعفـوا من مقاومتـها تمهيدا لفتحها فيما بعد.

والواقع أن البيزنطين لم يفرِّطوا فى سرقوسة، بل استماتوا فى الدفاع عنها. كما أن الأغالبة من ناحية أخرى - بذلوا جهدا كبيرا فى سبيل فتـحها، لأنهم كانوا يرون فى سرقوسة شوكة تفسد على الأسطول الأغالبى سيطرته على جزيرة صقلية. وقد حاول البيزنطيون استردادها ثانيه فأرسلوا فى أواخر سنة ٢٦٦هـ، أسطولا لمهـاجمة المسلمـين فيهـا، وأخذها منهم، لكن محـاولتهم باءت بالفشل وأسر المسلمون نحو أربع قطع بحرية بيزنطية، واضطر البيزنطيون إلى التخلى عنها ليسيطر عليها الأغالبة، ويجعلوا منها قاعدة لأسطولهم، وقد مهد فتح مدينة سرقوسة سنة ٢٦٤هـ السبيل للاستـيلاء على باقى مدن الجزيرة، ولذلك حـفلت الفترة من سنة ٢٦٦هـ إلى ٢٨٩هـ بكثـير من الحملات والسرايا، التى خرجت تغزوا أنحاء متفرقة من الجزيرة، لإخضاع باقى مدنها للمسلمين، وأهمها طبرمين، رمطة Rametta، وقطانية Catane.

فى سنة ٢٧٣هـ تعرض الحكم الإسـلامى فى مدينة بلرم - عاصمـة صقلية - لتمـرد أهلها على الوالى «سوادة بن محـمد» لكنه ما لبث أن تمكن من إخماده ولم يـمض على ذلك غير قليل حتى عقد المسلمون بصقلية سنة ٢٨٣هـ صلحا مع البيزنطين، كان من شروطه «إطلاق سراح ألف أسير مسلم، وأن تكون عندهم رهائن المسلمين فى كل شهر ثلاثة من العرب ومثلهم من البربر».

ويبـدو أن الذى حمل الأغـالبة فى صـقليـة على قبـول مثـل هذا الصلح مع الروم، تلك القلاقل التى بدأوا يعانون منها، بسبب انحياز بعض قـبائل البربر إلى أبى عبد الله الشيعى، داعى الفاطميين ببلاد المـغرب، فضلا عما نشب من خلاف بين العرب والبربـر. كما كانت الحرب بين الطولونيين والأغـالبة فيـما بين سنتى ٢٦٧، ٢٨١هـ سببـا فى وقف الحملات التى كـانت تخرج لاستكمال فتح صقلية.



استقر رأى إبراهيم بن الأغلب على الخروج- بعد أن أوقعت جيوشه الهزيمة بالطولونيين فى برقة وطرابلس الغرب- لإتمام فتح جزيرة صقلية. فأنفذ ابنه عبد الله إلى صقلية سنة ٢٨٧هـ، على رأس أسطول يتكون من١٦٠ مركبا حربيا، حاصرت طرابنه (ترابانى (Trapani) - وهى مدينة حصينة فى الطرف الشمالى الغربى لجزيرة صقلية - لكن أهل بلرم هاجموا المسلمين برا وبحرا، فتمكن منهم عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، وفر أكثرهم إلى القسطنطينية. ثم أعقب ذلك مسيره إلى قطانية (Catane) على الشاطئ الشرقى لجزيرة صقلية. ولما امتنعت عليه تركها، ليغزو فى السنة التالية (٢٨٨هـ) - مدينه «زلة»، وعدة حصون أخرى وافقت على دفع الجزية للأغالبة.

وفى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٨-٩٠٩م) استطاع المسلمون فتح طبرمين، فكان لنبأ سقوطها أثر سيئ على نفس الإمبراطور البيزنطى. ولا غرو، فقد كانت تعد من أهم حصون جزيرة صقلية المنيعة. وكان سقوطها خاتمة فتوح صقلية التى استمرت منذ حملة أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ حتى استيلاء المسلمين على طبرمين سنة ٢٩٦هـ.

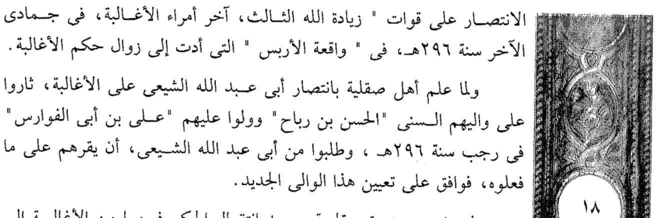
هكذا تم للأغالبة - باستيلائهم على مدينة طبرمين - السيطرة على جزيرة صقلية. ويعد هذا النصر دليلا قوياً على مدى ما وصلت إليه كفاءة الأسطول الأغلبى الذى وقف بصلابة أمام البيزنطيين. وبعد أن بسط الأغالبة سلطانهم على طبرمين، بثوا سراياهم إلى باقى جيوب صقلية التى لم تسقط، فوجدوا أهلها قد جلوا عنها.

ويعتبر فتح جزيرة صقلية من الأحداث المهمة فى تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط، إذ صارت سيادة الحوض الأوسط لهذا البحر فى يد الأغالبة، وكان يدعمهم قوة بحرية إسلامية أخرى فى الغرب، تتمثل فى الأسطول الأندلسى الذى ساندهم فى فتح الجزيرة، واستطاع أسطول الأغالبة أن يتخذ من هذه الجزيرة قاعدة له.

وقد ظل الأغالبة يُعْنَوْنَ بتعزيز قواتهم، ويحرصون على تتبع حركات أعدائهم فى البلاد الأوربية إلى أن قامت الخلافة الفاطمية فى المغرب، وقضى دعاتها على حكم الأغالبة فى إفريقية، ثم خلفهم الفاطميون فى مد سلطانهم إلى جزيرة صقلية.

٣- علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية:

أصبحت جزيرة صقلية منذ أوائل القرن الثالث الهجرى ولاية تابعة لدولة الأغالبة بإفريقية، وظل الحال على ذلك إلى أن استطاع " أبو عبد الله الشيعى - داعى الفاطميين فى بلاد المغرب-



الانتصار على قوات " زيادة الله الثالث، آخر أمراء الأغالبة، فى جمادى الآخر سنة ٢٩٦هـ، فى " واقعة الأربس " التى أدت إلى زوال حكم الأغالبة.

ولما علم أهل صقلية بانتصار أبى عبد الله الشيعى على الأغالبة، ثاروا على واليهم السنى "الحسن بن رباح" وولوا عليهم "على بن أبى الفوارس" فى رجب سنة ٢٩٦هـ ، وطلبوا من أبى عبد الله الشيعى، أن يقرهم على ما فعلوه، فوافق على تعيين هذا الوالى الجديد.

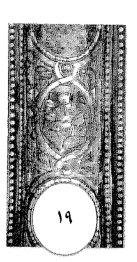
شهدت جزيرة صقلية- بعد انتقال الحكم فيها من الأغالبة إلى الفاطميين- فترة (من سنة ٣٠٠- ٣٢٧هـ) مشحونة بالفتن والاضطراب، ولم تكن هذه الفترة تعبيرا عن محاولات استقلالية، أو تمرداً على الحكم الفاطمى، وإنما كان الدافع إليها إما كُرْه أهل الجزيرة لبعض ولاتهم الشيعيين، بسبب ميل مسلمى صقلية للمذهب السنى والخلافة العباسية، أو تعسف الولاة.

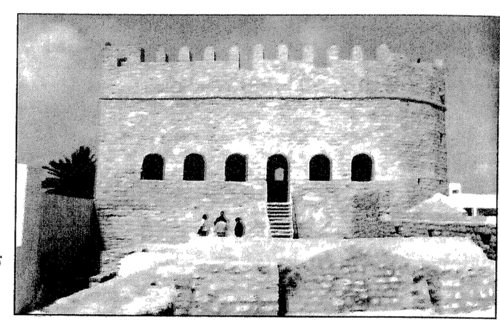
ولما آلت السلطة فى بلاد المغرب إلى «عبيد الله المهدى» عيّن واليا وقاضيا بصقلية، دون أن يأخذ رأى أهلها. فعزل على بن أبى الفوارس - الذى ولاه الصقليون من قبل وأقرهم عليه أبو عبد الله الشيعى - وولى مكانه سنة ٢٩٧هـ الحسن بن أحمد بن أبى خنزير الكتامى.

لكن أهل صقلية ثاروا على هذا الوالى، حين أساء السيرة فيهم. مما اضطر عبيد الله المهدى، أن يسند ولاية الجزيرة إلى والٍ آخر، يدعى " على بن عمر البلوى، سنة ٢٩٨ وكان كسلفه عسوفاً. على الرغم مما عُرف عنه من أنه كان لينا ضعيف الإرادة، مما جعل الناس يثورون عليه، وخاصة العناصر العربية التى ساءها أن يولى الفاطميون عليهم رجلا من البربر. ووقع اختيار زعمائهم على «أحمد بن زيادة الله بن قرهب»، ويقول المقريزى : «ثم إن أهل صقلية خالفوا عليه- أى على عبيد الله المهدى - وواليه بصقلية، فأنفذ إليها وقتل من أهلها»، ثم ينقل عن ابن الأثير بشىء من الإيضاح فيقول : «وخالف عليه أهل صقلية مع ابن قرعب ؛ فأنفذ (أى عبيد الله المهدى) - إليهم أسطولا».

كان أحمد بن قرهب طموحاً، فعمد إلى تدعيم نفوذه فى جزيرة صقلية فأرسل ابنه «عليا» إلى قلعة طبرمين، ليعدها حصنا له ولحاشيته وأهل بيته، خشية من انتقاض أهل صقلية عليه، وعند أسوار طبرمين، تبين لعلى بن أحمد بن قرهب، أن الجنود من مسلمى صقلية لا يُطْمَأن إلى جانبهم، ورغم هذا حاصر طبرمين ستة أشهر، لكن الجند ثاروا عليه، وأحرقوا خيامه وكادوا يقتلونه.

وكانت ثورة الجند على «ابن قرهب» بسبب ما لمسوه فيه من نزعة استقلالية، أدركها أنصار الفاطميين بجزيرة صقلية، مما دفعهم إلى التحريض ضده وضد ابنه، الذى كادوا يفتكون به لولا حماية السنيين العرب بالجزيرة له.





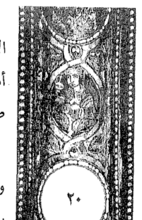
قلعة زويلة بمدينة المهدية - تونس

ويبدو أن «ابن قرهب» لم يكن يفكر- فى بادئ الأمر- فى الخروج على الخليفة الفاطمى، عبيد الله المهدى، إذ كتب إليه يقول : «إن أهل صقلية يُكْثِرون الشغب على أمرائهم، ولا يطيعونهم وينهبون أموالهم. ولا يزول ذلك إلا بعسكرٍ يقرهم ويزيل الرياسة- عن رؤسائهم-» ولكنه إرضاءً منه للعرب السنيين فى جزيرة صقلية وهم الذين حموه وابنه من القتل، وخوفاً من بطشهم انحرف عن الفاطميين؛ وأعلن ولاءه للخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)، فأقام له الخطبة، بدلا من الخليفة الفاطمى «عبيد الله المهدى» (٢٩٦- ٣٢٢هـ).

وكان «ابن قرهب» صادقا فى ولائه للعباسين، فأنفذ أسطوله لمهاجمة سواحل بلاد المغرب، واستطاع - فى بادئ الأمر - أن يوقع الهزيمة بالأسطول الفاطمى عند ساحل إفريقية، ثم هاجم مدينتى طرابلس الغرب، وسفاقس، وشرع فى مهاجمة المهدية، لكن الفاطميين استطاعوا - بعد أن بذلوا جهدهم فى إعداد أسطولهم- أن يوقعوا الهزيمة بقوات «ابن قرهب» ثم لم يلبث أهل صقلية أن ثاروا عليه، فحاول أن يداريهم دون جدوى.

ولما شرع (ابن قرهب) فى الرحيل إلى الأندلس، لاجئا إلى الأمويين - حيل بينه وبين ما يبغى، ونهب أهل صقلية ما كان له، وأسروا ابنه وقاضيه (ابن الخارى) ثم بعثوا بهم جميعا إلى الخليفة الفاطمى (عبيد الله المهدى) حيث أمر بقتلهم.

على أن أهل صقلية لم يكونوا جادين فى تحولهم عن الفاطميين، وإنما كان كل ما يبغونه هو الخلاص من (ابن قرهب). وبعد أن تم لهم ذلك أرادوا أن تصبح الحكومة فى بلادهم بأيديهم، بحيث لا يكون للخليفة الفاطمى سوى السيادة عليهم، فبعثوا إليه يطلبون منه أن يرسل إليهم واليا وقاضياً.



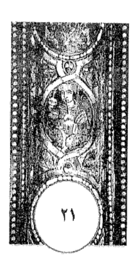
ومع أن عبيد الله المهدى نجح فى القضاء على حركة ابن قرهب، إلا أن الأمور لم تستقر للفاطميين بجزيرة صقلية، وذلك بسبب المنازعات المستمرة بين أهلها المسلمين بعضهم البعض من ناحية، وبينهم وبين المسيحيين من سكان صقلية من ناحية ثانية.

عوّل الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى - بعد تلك الأحداث التى واجهت الحكم الفاطمى فى جزيرة صقلية - على أن يرسل مع الوالى، الذى يحكمها باسم الفاطميين، جيشا يدفع عنه خطر الثائرين عليه، فضلا عن اتخاذه وسيله لقمع الولاة الفاطميين أنفسهم، إذا حدثتهم أنفسهم بالخروج على طاعتهم، وكان عبيد الله المهدى صادقا فى حدْسه. فما إن وصل الوالى الجديد أبو سعيد موسى بن أحمد - إلى الجزيرة سنة ٣٠٤هـ. حتى ثار عليه كثير من أهلها، ولولا مساعدة الجند الفاطمى لهذا الوالى لما استقر حكم (عبيد الله المهدى) فى هذه الجزيرة.

كذلك واجه «سالم بن أبى راشد» (والى صقلية فى عهد الخليفة القائم بأمر الله الفاطمى) ثورة أهل مدينة (جرجنت)، فجهز إليه هذا الخليفة جيشاً حاصر المدينة الثائرة، لإخماد المتمردين من أهلها. مما إضطرهم إلى الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطى (رومانوس الأول) فأمدهم بقوات بحرية اشتبكت مع أسطول الفاطميين: الذى تصدى للأسطول البيزنطى. وخسر الجانبان بعض سفنهما، ومع ذلك استمر حصار (جرجنت) حتى سنة ٣٢٩هـ مما اضطر أهلها إلى النزوح عنها، وطلب من بقى منهم الأمان من أمير البحر الفاطمى.

لم ينته بذلك التمرد على الحكم الفاطمى فى جزيرة صقلية؛ بل امتد إلى مدينة بلرم، مما اضطر الوالى الفاطمى «سالم بن أبى راشد» إلى الاستنجاد بالخليفة الفاطمى - «القائم بأمر الله» فأمده بقوة على رأسها «خليل بن إسحق». لكن سالم بن آبى راشد أثار أهل بلرم ضد «خليل بن إسحق» حتى لا يخلو له أمر ولاية صقلية. وقد ساعدت الأحداث «سالم بن راشد» على تأمره ضد «خليل بن إسحق» وخاصة حين رأى أهل بلرم خليلاً يشرع فى هدم أسوار مدينتهم وبنى مدينة أخرى سماها «الخالصة». لذلك خافه أهل جرجنت، وحصنوا مدينتهم، وتأهبوا لمحاربته. فسار خليل إليهم، وحاصرهم ثمانية أشهر، حتى ضاقوا ذرعا من شدة الحصار، ثم رحل عنهم سنة ٣٢٦هـ.

ولقد سعى أهل جرجنت إلى تأليب أهالى المدن الصقلية الأخرى. فثارت فى سنة ٣٢٧هـ جميع القلاع بالجزيرة، مما اضطر خليل بن إسحق إلى أن يطلب من الخليفة القائم الفاطمى إمداده بنجدات، فأجاب طلبه. وقد استطاع خليل بمعاونة هذه الإمدادات أن يحمل مدن وقلاع الجزيرة على الاستسلام، بعد أن أخضع مدينة جرجنت...



ولا شك أن الدولة الفاطمية كانت شـديدة الحرص ـ سواء فى أيام عبيد الله المهدى أو مَنْ جاء بعـده ـ على الاحتفاظ بنفوذها قويا فى جـزيرة صقلية، وكان يدفعـها إلى ذلك عدة أسبـاب سياسية واقـتصادية. فجـزيرة صقلية ذات أهمية خاصـة فى نظر مختلف القوى فى حوض البحر المتوسـط ؛ لأن موقعها الجغـرافى يمكن المسيطر عليـها من التـحكم البحرى بيـن شرق وغرب البـحر المتـوسط. ولذلك اهتم الفاطمـيون بـبسط سـيادتهم عليـها لاتخـاذها قاعـدة لأسطولهم فى البحر المتـوسط، ولصد الحملات التى يوجهها البـيزنطيون نحو سواحل دولتهم.

أما من الناحية الاقتصادية، فكانت أهمية جـزيرة صقلية بالنسبة للفاطميين، تنبع من غناها بالأخشاب والمعادن مثل الذهب والفضة والرصـاص والحديد وغيرها؛ لذلك نراهم يحرصون على بقائها خـاضعة لسلطانهم لمد دور صناعتهم فى إفـريقية ـ سواء فى المهدية أو سـوسة أو المنصورية فيما بعد ـ بما يلزمها من مواد وأخشاب لبناء أسطولهم.

وقد استمـر الفـاطمـيون فى إرســـال ولاتهم إلى جزيرة صقلية، إلى أن قامت ثورة «أبى يزيد مخلد بن كـيدال الخارجى»، التى شغلتـهم بعض الوقت. فلما قضى المنصـور الفاطمى على هذه الثورة سنة ٣٣٦هـ، عين أبـا الغنائم «الحسن بن الحسين بن على الكلبى» واليـا على صقلية. وفى عهده تجلى النزاع بينـه وبين مسيحيى صقليـة الذين استنجدوا «بقسطنطين السـابع» إمبراطور الدولة البيـزنطية فـأجاب طلبـهم، وأرسل قواته إلى صقلـية، حيث اشـتبكت مع قـوات الحسن الكلبى. وحلت الهزيمة بالجيش البيزنطى، واضطر الإمبراطور إلى طلب الصلح.

وقد عانى الحسن بـن الحسين الكلبى- أثناء ولايته جزيرة صقليـة- من انحراف بنى الطبرى عنه. فكانوا يكيدون له، رغـبةً فى خلعه من هذه الولايـة. فلما علم بذلك الخليفـة المنصور بالله الفاطمى (٣٣٤-٣٤١)، أمر بـالقبض على إسماعيل بـن الطبرى وأنصاره، فقبض الحـسن عليهم واستـولى على أموالهم. وبذلك تمكن الحـسن الكلبى من أن يركز جـهوده على ضـبط الأمور فى الجزيرة والقضاء على القلاقل الداخلية فيها، ليتيسر له متابعة وتنفيذ خطة غزو قلورية.

وقد أمدنا كتاب سيرة الأستاذ جوذر بتوقيع للخليفة المنصور فى هذا الصدد جاء فيه توضيح للدور الذى قام به بنو الطـبرى فى تحريض أهل صقـلية ضد الوالى الفـاطمى فى الجزيرة ، وأنهم كانوا يتحركون بتأييد محمد بن عبدون - أحد أفراد هذه الأسرة الكبيرة ـ وكان قد احتجزه الخليفة المنصور بالله لديه فى إفريقية دون أن يسى إليه لمكانـته العلمية بين أهل صقلية. وفى نفس الوقت بعث إلى الحـسن الكلبى يطلب إليه أن يسـتمـر فى تعقب وإخضـاع بنى الطبرى، والعـمل على إذعانهم للحكم الفاطمى وممثليه فى الجزيرة، وأمره أن يرسل إليـه فى إفريقية بكل من يقبض عليه



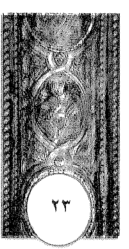
منهم، ليعاقبهم ويبعدهم عن الجزيرة، كما أمره الخليفة المنصور بالله الفاطمى - على لسان كاتبه جو ذر- أن يقضى على اضطرابات جزيرة صقلية. يدلنا على ذلك قول جو ذر عن المنصور الفاطمى : «وحُضَّه (أى يا جو ذر أنصحه) - حضاً شديداً على الصرامة، وإن يكون مرّا مريرا شَرِسًا، (أى أن يكون شديد البأس عليهم صارما فى حكمة لهم)، فإنه فى بلد قد أسكرت أهلَه النعمُ، وأبطرهم الإحسان، واعتادوا مع خليل بن إسحق أشياء لا يخرجها من رءوسهم إلا السيوف. وليكن صعبا مستصعبا (أى يضرب بشدة) على كل فاجر وداعر، وليرفع عنهم السوط ويستعمل فيهم السيف».

هكذا تولى «الحسن الكلبى» ولاية جزيرة صقلية، فى وقت كانت فيه الجزيرة تموج بالاضطرابات والقلاقل. فعمل الحسن الكلبى على إقرار الأمور فيها، وتابع خطة الغزو والفتح فى قلورية. واستمر على نشاطه هذا حتى توفى الخليفة الفاطمى المنصور بالله سنة ٣٤١هـ، وولى الخلافةَ المعزُّ لدين الله الذى أقره على ولاية صقلية.

لقد أدت السياسة التى اتبعها عبيد الله المهدى، والتى تقضي بضرورة وجود حامية فاطمية، إلى جانب ولاة صقلية لمعاونتهم فى صد الأخطار الخارجية والقضاء على الاضطرابات الداخلية، إلى إتاحة الفرصة لهؤلاء الولاة للسيطرة عليها. وتجلى ذلك بوجه خاص فى عهد ولاتها من الأسرة الكلبية، الذين تمتعوا بقدر كبير من الاستقلال. وظلوا يلون حكم هذه الجزيرة باسم الفاطميين، حتى بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى القاهرة سنة ٣٦٣هـ.

لم تتمتع جزيرة صقلية بالاستقرار فى عهد المعز لدين الله بسبب تهديد البيزنطيين لها. فقد نقض الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع(٩١٤-٩٥٩م) الهدنة التى عقدها مع الحسن الكلبى - وقد شجعه على ذلك ما أحرزه من نصر على العباسين والحمدانيين فى منطقة شرق البحر المتوسط.

وهكذا أصبحت جزيرة صقلية ميدانا للصراع بين قوتين كبيرتين فى حوض البحر المتوسط هما : الدولة الفاطمية، والدولة البيزنطية. فلم يدخر أباطرة بيزنطة - مثل قسطنطين السابع، ونقفور فوكاس، وميخائيل الرابع - وسعا فى محاولة السيطرة عليها؛ فأرسلوا الحملات البحرية الواحدة بعد الأخرى لزحزحة الفاطميين عن الجزيرة ولكن دون جدوى. بل إن الحسن بن على الكلبى أوقع بهم الهزيمة واستطاع أن يخرجهم من ترمينى (Termini) ثم عبر خليج مسينى (مسيناMessina) - (بين جزيرة صقلية وقلورية)- وانضم إلى جيوش أخيه (عمار بن أبى الحسن الكلبى). وما زال الحسن الكلبى وأخوه عمار يغزوان مدن قلورية، مدينه بعد مدينة، والإمدادات الفاطمية تتوالى عليهما من إفريقية، حتى اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى إرسال رسول من قبله



يدعى (سقراط) يطلب الهدنة والصلح سنة ٣٤٧هـ. وكانت هذه الهدنة مماثلة لتلك التى سبق إبرامها بين كل من الخليفة المنصور الفاطمى، والإمبراطور قسطنطين السابع، وتقضى بأن تدفع قلورية الجزية للمسلمين.

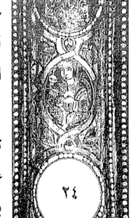
وبذلك ينتهى الدور الأول من هذه الحروب، التى شنها ولاة كل من القائم، والمنصور، والمعز لدين الله الخلفاء الفاطميين، على البيزنطيين - فى صقلية - والتى انتهت بزوال الخطر البيزنطى من هذه الأرجاء إلى حين. ولا ريب أن الفضل فى ذلك كله إنما يرجع إلى إخلاص ولاة صقلية من الأسرة الكلبية وهم «الحسن بن على الكلبى» وأخوه عمار وغيرهما من أفراد الأسرة.

ولكن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع لم يقف مكتوف اليدين أمام الخليفة الفاطمى المعز لدين الله وولاته على صقلية: بل عقد اتفاقا مع الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٢٠ هـ)، يتضمن توحيد جهودهما فى محاربة الفاطميين والحد من نشاطهم فى البحر المتوسط. وذلك بأن يقوم الأسطول البيزنطى بمهاجمة سواحل شمال إفريقيا الفاطمية وجزيرة صقلية من الشرق، بينما يُطبِقُ الأسطولُ الأموى من قواعده - فى ستة والمرية - على هذه المناطق من ناحيتها الغربية، غير أن جيوش وأساطيل المعز لدين الله الفاطمى، تمكنت من إحباط هذا التحالف؛ فانتصرت على الروم والأمويين معا سنة ٣٤٤هـ، مما اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى عقد هدنة مع الفاطميين لمدة خمس سنوات.

تعاقب على جزيرة صقلية من بنى الحسن الكلبى، نحو عشرة ولاة، ابتداء من سنة ٣٣١هـ، وقد شهدت الجزيرة خلال حكمهم تقدما كبيرا فى نواحى الحياة المختلفة، واهتماما بالعمل على استقرار الأمور، وتوطيد سيادة الفاطميين.

وفضلا عما تقدم فإن الكلبيين- وعلى رأسهم الحسن بن على الكلبى (٣٣٦-٣٤٢هـ) - تمكنوا منذ بداية حكمهم من إرضاء أهل الجزيرة. كما عمل هذا الوالى على توثيق الصلة بين وجوه صقلية والخليفة الفاطمى المعز لدين الله، فسار بصحبة ثلاثين رجلا منهم إلى الخليفة الفاطمى لمبايعته، فأكرمهم وخلع عليهم.

أما عن «أحمد بن الحسن بن على الكلبى» الذى ولى صقلية سنة ٣٤٢هـ فكان كأبيه الحسن فى ولائه للخلافة الفاطمية، كما اقتدى به فى سياسته خلال ولايته على هذه الجزيرة. فتابع حركة الغزو والفتح فى حوض البحر المتوسط وخاصة فى قلورية، وعمل على تدعيم النفوذ الفاطمى بالجزيرة، فأعاد فتح طبرمين، واستولى على قلعتها الحصينة سنة ٣٥١هـ، بعد أن حاصرها سبعة أشهر، مما اضطر أهلها إلى طلب الأمان، على أن يكونوا رقيقا وتصير أموالهم لهم. ثم أطلق



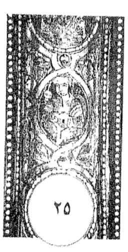
عليها اسم «المعـزية» نسبة إلى المعز لدين الله. وتبع ذلك اسـتسلام بعض المدن للقـوات الفاطميـة، بينما اسـتنجد أهل مـدينة رمطة (Rmetta) بالإمبـراطور البيزنطى نقفور فوكاس ٣٥٢هـ (٩٦٣م).

وقد ظلت المنطقة الشـرقية من جزيرة صقلية، بما فيـها مدينة رمطة، لا تعترف إطـلاقا بسلطان المسلمين على الجزيرة، إلى آخـر أيام السيادة الفـاطمية على جزيرة صـقلية. لذلك لم يجـد ولاة الجزيرة الفاطمـيين بدأً من الاكتـفاء بأخذ الجزية عـن أهالى هذه المنطقة، ووجهوا اهتـمامهم إلى متابعـة الفتح فى جنوب إيطاليا وقلورية، فضلا عن التأهب لصد البـيزنطين وإحباط أى محاولة من ناحيتهم، لاسترداد أية منطقة من صقلية.

ولما بلغ «أحـمد بن الحـسن بن على الكلبى»، استـعداد البـيزنطين بالهـجوم على جـزيرة صقلية، طلب سنة ٣٥٣هـ إمدادات بحرية وبرية من الخليفة الفاطمى بأفريقيا، ليدعم بها قواته فى مواجهة الهجوم البيزنطى المتوقع. فأمده المعز لدين الله ببعض النجدات، لعلمه بالخطر الذى يتهدد السيادة الفاطمـية على جزيرة صقلية، وقد وصل الأسطول الفاطمى بقواته من إفـريقية إلى جزيرة صقلية، قبل وصول الحملة البيزنطية المهاجمة. ثم دارت معركة عنيفة بين مسلمى الجزيرة تعاونهم القوات الفاطمية، وبين مسيحيى الجـزيرة يؤازرهم البيزنطيون، وتمكن المسلمون فى صقلية بمساعدة الجند الفاطمى من إحراز النصر على القوات المعادية.

ولقد رأى الفاطميون أن فتح مدينة رمطة لا يقل أهمـية عن فتحهم مدينة طبرمين. ولذلك سيروا إلـيها جيشـا بقيادة «الحسـن بن عمار بن على بن أبى الحسن الكلبـى». وقد اعتقد نـقفور فوكاس إمـبراطور الروم، أن كثـرة قواته وضخامـتها يضمنان النصـر على قوات الفاطميـين، أما الخليفة الفاطمى المعز لدين الله: فقد اهتم بإرسال إمدادات من القوات البرية و البحرية إلى جزيرة صقلية، لمعاونة قوات الحسن بن عمـار المحاصرة لرمطة، فوصلت إليها هذه القوات سنة ٣٥٣هـ. ثم قسمت القوات الفـاطمية إلى قسمين : أحدهمـا بقيادة الحسن بن عمار الذى عهـد إليه بمهمة حصـار مدينة رمطة، وثانيهـما بقيادة الحـسن بن على الكلبى الذى عسكر بهـا فى بلرم. وكانت القوات الفاطمية بصفة عامة ـ سواء تلك التى قـدمت من إفريقية، أو التى كانت فى صقلية نفسها ـ حسنة الأعداد.

كان البيزنطيون وقتذاك قد تأهبوا للزحف إلى صقـلية، بحملة كبيرة تولى قيادتها (مانويل) فوصلوا سنـة (٣٥٣هـ / ٩٦٤م)، فى الوقت الذى كانت فـيه رمطة محـاصرة بقـوات الحسن بن عمار، وقد اسـتطاع البيزنطيون السيطرة على مـسينا ـ وتبعد عن رمطة بنحو تسـعة أميال ـ وذلك على إثر نزولهم أرض صقليـة، كما استـولوا على ترمينى (Termini) وغيرها من المدن الـصقلية وحالوا دون وصول المدد إلى الحسن بن عمار، الذى كان يحاصر رمطة.



ولا غـرو فـقد ركـزت الحـملة البـيـزنطيـة جـهـودها على إنقـاذ هذه المدينة(رمطة) والقـضاء على قـوات الحسن بن عمـار، الذى أدرك خطر زحف الروم على هذه المدينة، على أن الحـسن بن عمار، لم يهـتم بما بلغه عن كـثرة قوات البيزنطين، وعـمد إلى تقسيم جيشه ـ الـذى كان يحاصر به رمطة- إلى أربعة أقسام : فجعل قسما منها لحصار رمطة نفسها، وعمل على الحيلولة دون اتصال أهلها بالبيزنطيين، كما وضعوا قسمين آخرين على رأس الواديين اللذين يوصلان إلى هذه المدينة، أما القسم الرابع فاتجه به الحسن بن عمار نفسه لمقابلة جيـوش (منويل) الرئيسـية الزاحفـة على رمطة. واستطاعت قـوات الحسن بن عمـار، التى حاصرت رمطة، أن تحول دون اتـصال أهل المدينة بالبيـزنطيين. وعلى الرغم من أن القوات الكلبـية كانت أقل عـددا وعتادا من قوات البـيزنطيين، فـإنه لما دار القتال بين الفـريقين، أظهرت قوات المسلمـين من الثبات والشجـاعة والجرأة، ما أذهل أعداءهم، وكـان مانويل وجنوده يعتـقدون أن النصر حليفـهم لا محالة. فلما تجلى ثـبات المسلمين أمامـهم، دب الهلعُ والفزعُ فى صفوف البيزنطيين، واستطاع الحسن بن عمار بجنده أن يُعملوا سيوفهم فى رقاب أعدائهم، وانتهى الأمر بهزيمة القوات البيزنطية وقتل مانويل القائد البيزنطى.

وهكذا تمكنت القوات الفاطمية من إحراز نصر حـاسم على البيزنطيين فى موقعة رمطة سنة ٣٥٣ ـ ٣٥٤هـ كما غنمت منهـا مغانم كثيـرة أرسلت إلى المعز لدين الله فى إفريقيـة. وكان لهذه الواقعة نتائج بعيدة الأثر،إذ قررت مصير الجزيرة بأكـملها؟ لأن رمطة كانت مركزا رئيسيا للمقاومة البيزنطية فى وجه الحكم الفاطمى فى جزيرة صقلية.

ولما بلغ أحمد بن الحسن بن على الكلبى ـ وإلى صقلية- هزيمة الروم أمام القوات الفاطمية بقيادة الحـسن بن عمار فى رمطة، مضى فى عسكره إلى مـسينا، ليقضى على فلول البـيزنطيين، وكانوا قد رحلوا عنها ، فلحق بهم فى منطقه المجاز سنة ٣٥٤ هـ (الخليج الذى يفصل صقلية عن إيطاليا) حيث أوقع بهم الهزيمة فى موقعة المجـاز. وبهذا النصر الذى أحرزته القوات الفاطمية فى واقعتى رمطة والمجاز سنة ٣٥٣، ٣٥٤هـ (٩٦٤،٩٦٥م) أصبح للأسطول الفـاطمى شأن كبير فى الحوض الغـربى للبحـر المتوسط. فـأخذت المدن الثـائرة فى مدينة صـقلية تسـتسلم الواحـدة بعد الأخرى، كـما دب الهلع والخـوف فى قلوب أهل قلورية ؛ فـعقدوا هـدنة مع أحمد بـن الحسن الكلبى سنة ٣٥٤هـ تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية للفاطميين.

كما أن البيزنطيين أدركوا – بعد ذلك النصر الذى أحرزته القوات الفاطمية فى كل من رمطة والمجاز – أنه لا سبيل لـهم إلا مهادنة الفاطميين. فـأنفذ الإمبراطور البيزنطى نقـفور فوكاس إلى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بالمغرب سفيرا عقد معه الهدنة سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م).



وبعد أن تم توقيع هذه الهدنة أرسل المعز كتابا إلى عامله على جزيرة صقلية الأمير أحمد بن الحسن الكلبى يطلب إليه الكف عن مهاجمة القوات والأملاك البيزنطية فى قلورية، كما طلب منهم التحوط والحذر، واستغلال فترة الهدنة فى بناء وتدعيم أسوار وحصون مدن صقلية، وأن يبنى فى كل إقليم من أقاليم الجزيرة مدينة حصينة وجامعا ومنبرا وأن يأخذ (يأذن) لأهل كل إقليم بسكنى مدينتهم ولا يُتْركوا متفرقين فى القرى, وقد قام أحمد بن الحسن بتنفيذ ما جاء فى رسالة المعز إليه فشرع فى بناء سور مدينه بلرم وبعث إلى وجوه الجزيرة ليباشروا العمارة فى نواحيها كل فى جهته.

أما عن الأحوال الداخلية فى جزيرة صقلية بعد ذلك النصر الذى أحرزته القوات الفاطمية، فإن أحمد بن الحسن الكلبى ظل واليا عليها حتى سنة ٣٥٨ هـ ثم عزله المعز لدين الله. ولا يبعد أن يكون قد لاحظ عليه ميلاً إلى الاستبداد بأمور الجزيرة وولى مكانه (يعيش) مولى الحسن الكلبى من سنة (٣٥٨ حتى ٣٥٩هـ). ومن المرجح أن الخليفة الفاطمى كان يرى إقصاء الكلبيين عن حكم صقلية حتى لا يستأثروا بالنفوذ فيها وخاصة بعد خروج جوهر الصقلى بجيوشه إلى مصر لفتحها.

وكان والى صقلية لا يعتبر ولايته ولاية شرعية إلا بعد وصول سجل التولية وخلعةَ التقليد من الخليفة الفاطمى بمصر. وبمضى الزمن اتخذ الأمراء الكلبيون فى صقلية الألقاب مثل «ثقة الدولة» «وتاج الدولة» «وتأييد الدولة» «وصمصام الدولة».

ولا شك أن الخلفاء الفاطميين كانوا يحرصون على مباشرة أمور الجزيرة الداخلية بأنفسهم إذا استدعت ظروفها ذلك. كما اهتموا بمتابعة أحوالها وأرضوا أفراد البيت الكلبى بقوة عصبيتهم بصقلية.

ولا شك أن نجاح أفراد البيت الكلبى فى الاحتفاظ لأنفسهم بحكم جزيرة صقلية تحت التبعية الفاطمية كان راجعا إلى سياستهم الداخلية الإصلاحية التى انتهجوها. فقد عملوا على إرضاء الفاطميين، كما حرصوا على كسب ثقة المسلمين فى صقلية بتصديهم للغارات البيزنطية التى شنت على الجزيرة فى عهدهم وفضلاً على ذلك فإن الكلبيين عمدوا إلى مراعاة التوازن بين عناصر السكان بالجزيرة فلم يظاهروا أو ينصروا عنصرا على الآخر.

على أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ما لبث أن عدل عن فكرة إبعاد الكلبيين، عن حكم صقلية، بعد أن فشل فى إخماد فتنة قامت بين كتامة وبعض القبائل بصقلية. فعاد وأسند إليهم

بقايا تمثال أبوللو إله القمر عند الإغريق

خريطة صقلية عصر الدولة الفاطمية



بعض المناصب الكبرى فى الدولة الفاطمية، وولّى (أبا القاسم بن الحسن الكلبى) ولاية الجزيرة، وهو الذى فى عهده استقرت الأمور فى أنحاء صقلية.

ولما انتقل الخليفة المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ، واتخذ القاهرة مقرا لخلافته، صار يلى أمور صقلية والٍ مستقل عن ولاية إفريقية والمغرب. وقد أجيز لهذا الوالى الرجوع إلى الخليفة الفاطمى مباشرة فى تصريف شئون ولايته.

وقد بدأ أبو القاسم بن الحسن الكلبى إمارته فى صقلية بتحصين حدود ولايته الشمالية، ثم خرج بعد ذلك لغزو ممتلكات الروم فى قلورية وجنوبى إيطاليا. ولم يقف الخليفة المعز لدين الله مكتوف اليدين، إزاء ما قام به (أبو القاسم الكلبى) وما أبداه من همة ونشاط هجومى واسع النطاق، على أراضى الدولة البيزنطية سنة ٣٥٩ هـ فى قلورية وجنوبى إيطاليا، بل عمل على إمداده بحاجته من المؤن والعتاد والقوات.

وقد استمر أبو القاسم بن الحسن الكلبى، واليا على صقلية، حتى توفى سنة ٣٧٢هـ (٩٨٢ ـ ٩٨٣م)، فى غزوته الخامسة لجنوبى إيطاليا. فى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ـ ٣٨٦م). وكان أهم عمل قام به هذا الوالى أيام المعز لدين الله، هو توحيده جهود القوات الفاطمية بصقلية إزاء الخطر الجرمانى. يقول ابن عذارى : «وفى سنة ٣٧٢هـ ـ قتل أمير صقلية، أبو القاسم على بن حسن سنة ٣٧٣هـ ، فى قتاله مع الفرنج، بعد ولاية دامت إحدى عشرة سنة ـ وكان «جابر بن أبى القاسم بن على بن الحسن الكلبى» مستبدا خلال ولايته الجزيرة، لذلك لم يستمر طويلا حاكما لصقلية. بل سرعان ما عُزِلَ عنها وخلفه (جعفر بن محمد بن الحسن الكلبى)، الذى ظل واليا على صقلية من قِبَلِ الفاطميين حتى سنة ٣٧٥هـ». فى خلافة (العزيز بالله الفاطمى) شهدت الجزيرة عهدا يتسم بالأمن والاستقرار، أثناء ولاية الأمير «أبى الفتوح بن يوسف» الملقب (ثقة الدولة) (٣٧٩ـ ٣٨٨هـ)، الذى ضبط أمور الجزيرة واحسن معاملة الرعايا. وحسنت فى عهده الأحوال ، وأنْسَى (فاق) بجلائله وفضائله كل من كان قبله من بنى أبى الحسين (الكلبيين). لكن أبا الفتوح يوسف اعتزل منصب الولاية لمرض أصابه. ثم خلفه ابنه تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة أبى الفتوح بن يوسف.

لكن الأمير تاج الدولة لم يكن كأبيه، فأساء معاملة أهل الجزيرة، مما دفعهم إلى التمرد عليه وعلى عماله فخرج إليهم أبوه يوسف محمولا فى محفة لمرضه، (وشَرَط للناس عزله) وسكنتهم، وقدم عليهم أخاه " تأييد الدولة أحمد بن يوسف بن عبد الله بن الحسن الكلبى - وهو المعروف (بالأكحل).



ولما ولى «أحمد الأكحل» أمور صقلية سنة ٤١٠هـ (١٠١٩ - ١٠٢٠م) أثار الانقسام بين سكانها من المسلمين، فأغرى أهل صقلية بالعمل على إخراج الإفريقيين من بلادهم، فقال له : «قد صاهرناهم (أى الإفريقيين) وصرنا شيئاً واحد». ثم بذل محاولته مع الأفارقة ونجح فى اجتذابهم إليه فالتفق حوله. وظل «أحمد الأكحل » يؤثرهم على أهل صقلية، فيأخذ الخراج من الصقليين ويستبد بهم، حتى ضاق الحال بأهل الجزيرة، خاصة بعد أن استخلف عليهم ابنه «على بن أحمد بن يوسف»، الذى أساء معاملتهم، فسار جماعة منهم إلى المعز بن باديس بإفريقية سنة ٤٢٧هـ، وشكوا إليه ما حل بهم.

استجاب المعز بن باديس لأهل صقلية، فأرسل إليهم ابنه «عبد الله» على رأس ثلاثة آلاف فارس، حاصر بهم «الأكحل» وقتله. لكن فريقا من الصقليين ما لبثوا أن تمردوا على «عبد الله بن المعز بن باديس»، الذى جاء لنجدتهم وإنقاذهم من عسف «أحمد الأكحل»، واستعانوا بالنورمان الذين كانوا وقتذاك فى جنوب إيطاليا. وساد الاضطراب والفوضى أنحاء الجزيرة فى عهد ولاية «الحسن بن يوسف»، الذى خلف أخاه «أحمد الأكحل»، وساعد النورمانُ أهلَ صقلية، على طرد هذا الوالى.

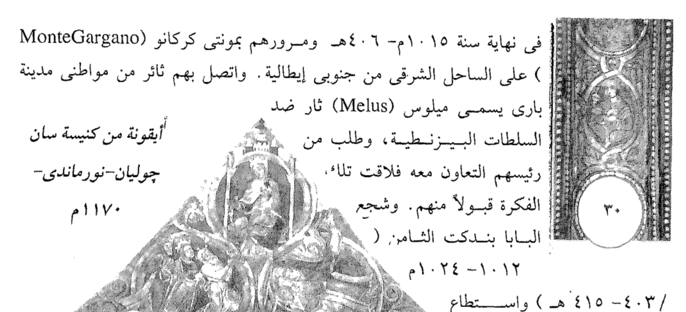
لقد ساد الاضطراب جزيرة صقلية، بعد أن استبد كلُّ ثائرٍ بجهته فانفرد القائد «عبد الله بن منكوت» - أو منكود - بمازرة (Mazara) ، واستقل «عبد الله بن الحواس» بقصريانة وجرجنب وغيرهما، واستولى «محمد بن إبراهيم بن الثمنة سنة ٤٣١ هـ على سرقوسة (Syracuse) وبلرم وقطانية (Cantane). وتلقب بالقادر بالله. ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل إن الفتنة امتدت إلى الثائرين أنفسهم. وانقسمت صقلية بذلك إلى عدة ولايات منفصلة، واستنجد «ابن الثمنة» بالنورمان، مما أدى إلى توجيه أنظارهم إلى صقلية، لوقوفهم على تشتت قوة المسلمين فيها.

٤- سقوط صقلية فى يد النورمان وانتهاء السيادة الإسلامية عليها:

خرجت صقلية عن نطاق السيادة الإسلامية باستيلاء النورمان عليها، وساعد على هذا الاستيلاء أسباب داخلية صقلية وأخرى خارجية تخص العالمين الإسلامى والمسيحى فى القرن الخامس الهجرى. وقد سبق هذا قيام دولة للنورمان فى منطقة جنوب إيطاليا التى كانت فى بداية القرن الخامس الهجرى - قبل مجىء النورمان إليها - مقسمة بين البيزنطيين واللومبارديين.

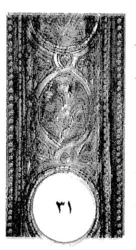
وكان النورمان قد تعلموا الملاحة فى بحر الشمال وبحرَ البلطيق وعُرفوا بحب المغامرة, وقد بدأ ظهورهم بصورة محددة فى جنوبى إيطاليا بعودة أربعين حاجا نورمانديا من الأراضى المقدسة

فى نهاية سنة ١٠١٥م- ٤٠٦هـ ومـرورهم بمونتى كركانو (MonteGargano) على الساحل الشرقى من جنوبى إيطالية. واتصل بهم ثائر من مواطنى مدينة بارى يسمـى ميلوس (Melus) ثار ضد السلطات البيـزنـطيـة، وطلب من رئيسهم التعاون معه فلاقت تلك الفكرة قبـولاً منهم. وشجع البـابا بنـدكت الثـامن (١٠١٢- ١٠٢٤م / ٤٠٣- ٤١٥ هـ) واسـتطاع مـيلوس مع حلفـائه النورمانديين تحقيق النصر فى معركة ضد البيزنطيين سنة١٠١٧م/ ٤٠٨هـ ثم توجه هؤلاء الحجاج النورمان إلـى وطنهم نورمانديا وأخذوا مـعهم من الهدايا أقمـشة ثمينة وحللا فاخرة وسـروجا ذهبية وفضيـة زاهية، وما لم تعرفه فـرنسا قبل ذلك الزمن من البرتقال الناضج. قاصـدين بذلك أن يرى أبناء قومهم النورمان تلك المنتجات ليـتشوقوا إلى زيارة جنوب إيطاليا التى تنتج مـثلها. وقد أغرى ذلك نورمان فـرنسا على الهجرة لسـماعهم أخبار تلك الغنايم القيمة والأراضى الجيدة التى من الممكن الحصول عليها بسهولة فى أبوليا.



أيقونة من كنيسة سان چوليان-نورماندى- ١١٧٠م

تلك هى أسباب إغارات النورمان الذين كان همهم منصرفا إلى النهب أكثر مما هومتجه إلى الدفاع عن دينهم. حـيث تساوى البيـزنطيون والإيطاليون والمـسلمون فى نظرهم فصـاروا يسلبون هؤلاء جميعاً بحماس بالغ. والذين اعتـبروا - فى مدة خمسين سنة أى حتى تمت لهم السيطرة - أن كلا من إيطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية بلاد يمكن الإثراء فيها بسهولة. كما انتصر أيضا ميلوس والنورمان على البيزنطيين فى معركتين أخـرتين. إلا أن البيزنطيين استطاعوا الانتصار على تحالف مـيلوس والنورمـان. وانتهت بذلـك الثورة وهرب مـيلوس إلى البـلاط الجـرمانى عـام١٠٢٠م- ٤١١هـ. أمـا حلفاؤه من النورمـان فقـد فروا إلى تلال إيطاليـا وأوديتهـا يكسبـون قوت يومـهم بسـيوفهم. وانـشغل أمراء كـابوا capuab وبينفـينتوم وسالـيرنو Salerno ونابلى كل بدوره فى منازعاتهم الداخلية وفـى سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م منح دوق نابولى المرتزقة فى جيشه من شـجعان النورمان مقاطعـة أفيرسا (Aversa) مكافأة لهم على خدمـاتهم بزعامة راينولف (Rainiulf) وهو أول زعيم للنورمـان لتكون حاجـزاً لنابولى ضد هجمـات "كابوا " وبهذا أصـبحت فيـرسا أولى المستوطنات النورماتية فى إيطالية ونواة للقوة النورماتية فى جنوبى إيطاليا.



واعتـبر تأسيـسها (أفيـرسا) حدثا ذا أهمـية كبـرى، إذ يؤشر إلى تلك المرحلة التى تحول فيها النورمان من مجرد كونهم رجال سيوف يخدمون هذا أو ذاك دون هدف، بل أصبح هدفهم هو احتلال الأرض لأنفسهم، وليس لصالح بيزنطية أو ألمانيا أو اللمومبودريين. وكانت ظروف إيطاليا الجنوبية مشجعة، فقد كان النزاع الداخلى بين اللومبارديين ودول المدن الإيطاليـة وقادة الإمبراطوريتين البيزنطية والجـرمانية، والثورات المتواصلة فى أبوليا ضد البـيزنطيين جعلت من المؤكد أنهم سـيستـغلون الفرصة السـانحة. وقد جـذبت أخبار نجـاح النورمان أفواجـاً جديدة من الحـجاج والجنود النورمـان كل عام. حـيث دفعت الحـاجة الفـقراء، كمـا دفع الأمل الأغنيـاء وأصبـحت أفيـرسا ملجـأ لكل طريد أو هارب أو راغب ثراء نورماندى.

أما عائلة تانكرد فقد سيطرت على جنوبى إيطاليا وصقلية. ويعود تاريخ هجرتها إلى إيطاليا كما ورد فى رسائل راينولف التى أرسلهـا من افيرسا إلى نورمانديا يدعو فيها المغـامرين للمشاركة فى مستقبل زملائهم من وطنهم فى إيطاليا المتصارعة. وكانت الأخبار التى تصل من أفيرسا مغرية للنورمان عليالهجرة ومنهم أبناء تانكرد الذى كان له اثنا عشر ولدا خمسة من زوجته الأولى وسبعة من زوجته الثانية ، ومن هؤلاء الأثنى عشر بحث ثمانية مـنهم مستقبلهم فى إيطاليا وأثبت خمسة منهم دوراً كبيرا.

وكان أول من وصل إلى إيطـالية الجنوبية من هؤلاء الأبناء هـم : وليم ، ودورجو اللذان باعا سيوفهمـا إلى باندلوف أمير كابوا وعندما جهز القائد البيزنطى مـانيكاكيس حملة على صقلية العربية سنة ١٠٣٨م / ٤٣٠هـ استخدم عددا من المحاربين النورمان كان من أبرزهم الإخوان وليم ودروجو ولمع اسم وليـم لشجاعـته وقوته ثـم أحرز الأخوة وليم ودرجـووهمفرى شـهرة واسـعة كمقاتلين.

وبعد أن أوجـدوا جيـشاً فـرنسيـاً تحت قيـادتهم رأوا أنه من الأصلح لهم القتـال من أجل صالحهم وليس من أجل صـالح الآخرين. وطوروا أعمالهم غير المنظمـة إلى غزو منظم. وأصبح وليم أميراً على أبوليا سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م التى تكونت من اثنتى عشر دوقية نورمانية. واتخذت أمالفى AMalphi عاصمـة لها ، وذلك بعد الانتـصار على البيزنطيـين ومنذ ذلك الوقت أصبح بالإمكان تأريخ استـقرار سلطان النورمان فى إيطاليا الجنوبيـة. وعندما توفى وليم سنة ١٠٤٥ م/ ٤٣٧هـ تولى لإمارة أبوليا مكانه، وبعد مقتل دروجو سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١ م تولى الإمارة المذكورة الأخ الثالث همفرى. ولم يبد القادمون الجدد من النورمان أى احترام أو عطف على رجال الكنيسة أو المواطنين العاديين، بل دمروا الكنائس وقتلوا المسيحيين.

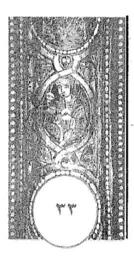


وبعد فترة من الزمن ظهرت مشاعر الكراهية للنورمان ممزوجة بالخوف والحقد فى كل إيطاليا الجنوبية. لدرجة أن رئيس دير للرهبان كتب خطاباً إلى البابا ليو التاسع(١٠٤٨/ ١٠٥٤م) يشكو فيه من تعرضه لهجوم من قبل النورمان وهو فى طريق عودته من الحج إلى روما وعندما لم يجد إنذار البابا للنورمان نفعاً، أرسل إلى الإمبراطور البيزنطى كتاباً يدلل فيه على سوء معاملة جيش النورمان المسيحى للبلاد التى استولى عليها فى جنوبى إيطاليا.

ونتيجة لما سبق فقد بدأ الصراع بين البابوية والنورمان فى جنوبى إيطاليا. فدخلت البابوية والدوقيات اللومباردية القديمة والبيزنطيون فى اتحاد ضد النورمان وأعد البابا ليو التاسع فى سنة (١٠٥٣م / ٤٤٥ هـ) جيشاً لطرد النورمان إلا أن النورمان بقيادة ثلاثة منهم وهم : الأخوان هسفرى، وروبرت جسكارد ، ونورمانى آخر اسمه ريتشارد استطاعت الانتصار على البابا فى معركة كيفيتاى (Civitae). ووقع البابا نفسه أسيراً فى أيديهم ثم أطلقه همفرى النورمانى فى مارس ١٠٥٤م - ذى الحجة ٤٤٥ هـ ، فهجر البابا حلفاً قد دعا إليه. وكان روبرت جسكارد قد وصل جنوبى إيطاليا فى نهاية عام١٠٤٥ م / ٤٣٧هـ أو فى بداية ١٠٤٦ م/ ٤٣٨هـ .

لذلك كله عقد البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩-١٠٦١م / ٤٥١-٤٥٣هـ) معاهدة مع النورمان سنة (١٠٥٩م / ٤٥١م) وأقطعت البابوية دوقية أبوليا وكلابريا إلى روبرت جسكارد بن تانكرد النورماندى. وقسم روبرت : بعظمة الله والقديس بطرس دوقا على أبوليا وكلابريا ودوق المستقبل لصقلية إذا ما سنحت له الفرصة بذلك. وعهدت إلى أخيه رجار(روجر) مهمة الاستيلاء على جزيرة صقلية. مكافأة له ولأعقابه من بعده - على طرد المسلمين من الجزيرة. والتى بوركت كحرب مقدسة، فحصل النورمان بهذا على غطاء شرعى لاحتلالهم صقلية. وكان روجر تابعاً لأخيه روبرت. إذ سبق أن أرسله أخوه روبرت على رأس قوات إلى كلابريا، ونصب نفسه هناك سيداً لنصف المقاطعة بالرغم من تبعيته لسلطان أخيه ، ثم تم للأخوين روبرت وأخيه احتلال كلابريا احتلالاً كاملاً وأخذها من البيزنطيين سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٠ م.

أما روجر- وهو الابن الأصغر(الثانى عشر) لتازلكرد فقد بقى مدة طويلة فى نورمانديا قبل مجيئه إلى أبوليا فى إيطاليا الجنوبية. سنة ٤٤٩ هـ١٠٥٧ م. وبعد مجيئه قام بعمليات سلب وسرقة الدور والخيل من اصطبلات أمالفى، وكان تطلع روبرت وروجر للاستيلاء على صقلية وأخذها من المسلمين هو هدفهما منذ وصولهما إلى ريو Regio وقد أثارت خيراتها بخصوبتها شغفهما بالجزيرة، كما كان قرب المسلمين يشكل خطرا دائما لمملكتهم. غير أن روبرت جسكارد على أية حال قد أعاقته خلال السنوات الأولى من الاستيلاء ما وقع من الأحداث فى إيطاليا



ولعب دورا ثانيا فى الاستيلاء على صقلية وكان روجر طموحا فوجد فى احتلال صقلية ما يحقق له شهرته، فقد كان روبرت جسكارد يحكم الأرض فى إيطاليا الجنوبية. بينما وجد روجر أن أخاه بطيء فى مكافأته بالأراضى والإقطاعات فى جزيرة صقلية، فهى أغنى من إيطاليا الجنوبية نفسها وهى تحت سيادة المسلمين. فإذا ما شن عليها حرباً فإنه لا يحتاج إلى عذر أو سبب.

وقد ربط بعض المؤرخين بين فقدان جزيرة صقلية وبين ضعف العالم الإسلامى. ومنهم ابن خلدون الذى أرجع ذلك إلى تدهور قوة كل من الدولة الفاطمية والأموية فى الأندلس، إذ قال: «حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وإقريطش ومالطة فملكوها». وقال ابن الخطيب «ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت (الكلبى)، إلى أن انقطع عنهم إمداد المسلمين. لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن فكان استخلاص العدو لها فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة». وقد حدّت غاراتُ العرب الهلالية من المساعدات المبذولة من جانب شمال إفريقية إلى صقلية. فكان الزيريين أحوج ما يكونون لجميع مواردهم. وتركت صقلية تدير أمور دفاعها بما لديها من وسائل. إلا أن هذا لا يعنى أن الزيريين لم يدافعوا عن صقلية ضد النورمان عندما تهيأت لهم الفرصة. كما أن الانقسامات فى العالم الإسلامى التى عزلت الجزيرة عن مركز الخلافة الفاطمية دفعت البابا نيقولا الثانى إلى مد مظلة الحكم النورماندى من إيطاليا إلى صقلية.

أما **العوامل الخارجية** الخاصة بالعالم المسيحى والتى كان لها أثرها فى زوال الوجود الإسلامى من صقلية، فترجع جذورها إلى وقوف البابا وجنوده ضد مجاهد العامرى فى إيطاليا وسردانية. وكذلك فى الدور الذى لعبته كل من بيزا وجنوة على كل من صقلية وإفريقية.

فالأندلس كان فيها ثلاثة متنافسين يدّعون الخلافة الأموية، استقل أمراء الأطراف وأصبحوا يدعون بملوك الطوائف. وكان نصيب «مجاهد العامرى» دانية. الذى تقلد ولايتها منذ سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م. ثم استطاع أن يفتح جزر البليار (ميورقة، منورقة، يابسة) سنه ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م وسرانية ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م. وقام من سرانية فى السنة نفسها بمهاجمة مدينه لونى (Luni) الإيطالية على البحر التيرانى. واتخذها مركزا للهجوم على المدن الإيطالية وخاصة بيزا. فأفزعت هذه الأعمال البابا بندكت الثامن فدفع كلا من بيزا وجنوة إلى طرد مجاهد العامرى.

ولا شك أن كلا من بيزا وجنوة وجدتا نفسيْهما مضطرتين إلى التعاون وإيقاف العداوة بينهما لمقاومة مجاهد العامرى بإيطاليا، وكان السبب الحقيقى فى إطاعتهما أوامر البابا هو الحرص على مصالحهما التجارية والبحرية. وأن الخلاف الدينى بين الطرفين المتنازعين هو الذى جعل من

آثار لحمام عرب بلل جزيرة مايورقة

كنيسة مدينة بيزا الإيطالية وبجوارها برج بيزا المائل الشهير

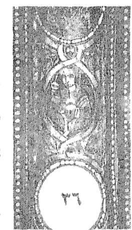


الحرب السياسية الدوافع حربا مقدسة. وان المعركة بين بيزا وجنوة من جهة ومجاهد العامرى من جهة أخرى تدل فيما تدل على ابتداء الاتجاه الجديد وعلى تغير ميزان القوى البحرى بين القوتين المتصارعتين على سيادة البحر المتوسط. وأنها كانت تهدف إلى وضع خاتمة للانتشار الإسلامى فى الغرب.

وفعلا استطاعت كل من بيزا وجنوة معا، استعادة مدينة : «لونى» من مجاهد العامرى سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م الذى عاد إلى سردانية. ثم استطاع أسطول بيزا وجنوة انتزاع سردانية من مجاهد سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م. وهكذا كان لعمل كل من بيزا وجنوة أثر فى تأمين جهة الأندلس من أى احتمال لمساعدة أندلسية لصقلية العربية. ولم يقتصر دور بيزا وجنوة على الجبهة الأندلسية.

فعندما بدأ روجر النورماندى بهجومه على صقلية كانت تحركاته فى نظر البيزيين بطيئة. وطلبوا منه أن يوجه جهوده نحو بالرمو عاصمة صقلية ومركز الحياة التجارية فيها. لكن روجر كان متردداً فى مهاجمتها لأن جيشه كان قليل العدد، كما أن جزءا من قوته مشغول فى جهات أخرى. وتوسل إليه البيزيون دون جدوى - أن ينضم إليهم لحصار المدينة (بلرم) - لذلك قرروا سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م أن يجازفوا بالمغامرة وحدهم. وهاجم أسطولهم ميناء المدينة ونفذ إلى مدخلها واستولى على بعض السفن العربية المحملة ببضائع ثمينة، وقامت جنود الأسطول بمعارك تحت أسوار المدينة، ولكنهم توقفوا ولم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة. إضافة إلى الهجوم الذى قام به البيزيون والجنويون مؤخراً فى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م على إفريقية أيام تميم بن المعز بن باديس (الصنهاجى).

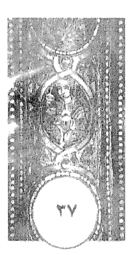
وهكذا باتت الظروف مواتية للنورمان لاحتلال الجزيرة بسبب تفتت القوى الإسلامية فى صقلية، والصراع والتنافس والانقسام الذى كان بين أمراء الجزيرة، وأخذت صقلية تفقد قوتها وأهميتها الدفاعية بعدما ظلت لمدة طويلة حصن الإسلام المنيع فى البحر المتوسط. وتعود جذور هذا الضعف إلى استمرار الخلافات والمنازعات الداخلية بين مسلميها من العرب والبربر. ففى سنة٤٠٥/ ١٠١٤م ثار على بن ثقة الدولة على أخيه جعفر تاج الدولة مستعينا بالبربر والعبيد. لكن تاج الدولة تمكن من قمع ثورة أخيه وقتله، ونفى جميع البربر مع عوائلهم من الجزيرة إلى إفريقية، وأمر بقتل العبيد عن آخرهم، وجعل جيشه من الصقليين فقط. مما كان سبباً فى ضعف الجيش الصّقلِى. ثم قامت ضده ثورة شعبية اشترك فيها أهل البلد جميعا، كبارهم وصغارهم، وحاصروه فى قصره فى محرم سنة ٤١٠ هـ مايو ١٠١٩ - بسبب سوء معاملة كاتبه لأهلها وفرضه ضرائب باهظة عليهم - ولم يُنْجِهِ منهم إلا خروج والد ثقة الدولة المصاب بالشلل فى محفة، والذى كانت له منزلة كبيرة عندهم، فهدأ من هياجهم، وطلبوا منه عزل تاج الدولة عن الإمارة وتعيين أخيه أحمد الأكحل، فتم لهم ما أرادوا.



وقد اتبع الأمير أحمد الأكحل سياسة التفرقة بين الصقليين والإفريقيين مما أدى إلى مقتله سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٩م. ثم تولى أخو الأكحل - وهو الصمصام حسن بن ثقة الدولة - الإمارة ثم عُزل عنها، وتجزأت الجزيرة إلى ولايات يحكم كلاً منها قائد مستقل. فالعاصمة بلرم (أو بالرمو) أصبحت يحكمها مشايخها. بينما استقل عبد الله بن منكوت بمدن مازرة وطرابنش والشاقة ومرسى عَلِى وما حولها، وسيطرعلى بن نعمة المعروف بابن الحواس على مدن قصريانة وجرجنت وغيرهما، والمكلاتى بمدينة قطانية، وانفرد محمد بن إبراهيم المعروف «بابن الثمنة» بسرقوسة وهو الذى استطاع قتل المكلاتى واستولى على قطانية.

وهنا يبدأ الدور الخيانى الذى لعبه ابن الثمنة فى استدعاء روجر لاحتلال صقلية، وتذكر لنا المصادر قصة ابن الثمنة وكيف تم، ذلك إذ إنه بعد أن قتل المكلاتى - الذى كان زوجاً لأخت القائد ابن الحواس - طلب من ابن الحواس أن يزوجه من ميمونة زوجة القتيل. فكان له ذلك، إلا أن ابن الثمنة - وهو سكران - تخاصم مع زوجته وفصد ذراعها، واعتذر لها بالسكر صباحاً، فتظاهرت بقبول الاعتذار، لكنها شكت إلى أخيها ابن الحواس ذلك، فحلف أنه لا يعيدها إلى زوجها، فجهز ابن الثمنة جيشاً إلى قصريانة وجرجنت لانتزاعها من ابن الحواس، إلا أن ابن الثمنة حلت به هزيمة منكرة، فاستنجد بروجر النورماندى الذى كان فى مدينة ملطية قلورية فى جنوب إيطاليا ، ويقول فى ذلك الانتصار بالكفار لما يريده الله تعالى فسار إلى مدينة مليطو.. وكان ملكها حينئذ وجار الفرنجى فى جمع من الفرنج، فوصل إليهم ابن الثمنة وقال : أنا أملككم الجزيرة ! فقالوا : إن فيها جنداً كثيرة، ولا طاقة لنا بهم، فقال : إنهم مختلفون، وأكثرهم يسمع قولى، ولا يخالفون أمرى. فساروا معه فى رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة، واختلفت المصادر فى تاريخ بدء الغزو النورماندى، فابن الأثير وأبو الفداء والنويرى ذكروا أن أول هجوم لروجر النورماندى على صقلية كان سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م. بينما غيرهم يقول إن أول هجوم ناجح للنورمان على صقلية كان سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م. ويؤيد التاريخَ الأخيرَ مصادرُ عربية عدة، بينما تذكر مصادر عربية أخرى أن بداية ذلك الهجوم كانت سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م.

وبما أن المصادر الأوربية تذكر أن روجر جاء من نورمانديا بفرنسا إلى إيطاليا سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م. أى أنه فى سنة ٤٤٩م كان لايزال فى نورمانديا، مما يؤدى إلى ترك ما قاله كل من ابن الأثير وأبو الفداء والنويرى عن بدايةالغزو النورماندى. وتذكر المصادر الأوربية مؤامرة سرية قام بها نصارى مدينة مسينا باستنجادهم بالنورمان قبل استدعائهم من قبل ابن الثمنة، وذلك أن ثلاثة نبلاء من نصارى مسينى اجتمعوا فى ٦ رجب سنة ٤٥٢هـ / ٦ أغسطس ١٠٦٠م بجزيرة سان جاسينتو



وقرروا أن تقدم صقلية للكونت رجوجر والدوق روبرت اللذين كانا مع البابا فى مدينة مليطو Mileto فى كلابريا بجنوب إيطاليا، وأبحر النبلاء الثلاثة المتآمرون إلى مليطو متنكرين ومتظاهرين بأنهم متوجهون إلى مدينة طرابنش Trapani بصقلية. وتقابلوا مع البابا وفاتحوه بقدوم روجر إلى صقلية فوافق على ذلك، وعندئذ حلف روجر اليمين وقال أنه سيكون فى مسينى بعد أسبوع، وفعلاً بدأ هجومه فى سبتمبر ١٠٦٠م شعبان سنة ٤٥٢هـ. بعد مدة قصيرة من احتلال ريو (Riggio) بإيطالية. وقدم له المسيحيون المساعدة من داخل المدينة فقدموا السلاح وفتحوا أبواب المدينة، إلا أن روجر لم يستطع السيطرة عليها بسبب المقاومة الإسلامية التى واجهها، فاضطر إلى الرجوع إلى ريو، ثم انضم إلى أخيه روبرت لمواجهة النورمان المغتصبين فى إبوليا والمدن التى لم تخضع لهم. بينما كان الأخوان يفكران فى مواصلة الحرب فى جزيرة صقلية، جاء ابن الثمنة يستحثهم على هذا العمل.

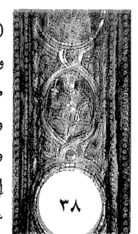
ولم تذكر المصادر العربية مزيداً عن تفاصيل المقابلة التاريخية الخيانية التى تمت بين ابن الثمنة وروجر النورماندى فى مليطو (Mileto) وبعدها فى ريو (Reggio) ومعهما روبرت. بينما ذكرت المصادر الأوربية ذلك، وقالت أن النورمان عندما وافقوا، قدّم ابن الثمنة ابناً صغيراً له رهينة إلى روبرت، ليطمئنه ويشجعه على الاستمرار فى ذلك العمل.

واستعد روجر للهجوم بنفسه مع جنده وأمده أخوه روبرت بالفرسان والبحارة الذين كانوا عنده فى ريو وسار روجر بصحبة ابن الثمنة الذى كان يعرف الأماكن الصقلية، مع الادعاء بأنه يتباهى بأكثر ما يعرف.

وفى أوائل محرم سنة ٤٥٣هـ / أواخر فبراير سنة ١٠٦م بعد الظهر نزل النورمانديون على لسان أرض بالقرب من البحيرات وأخذوا مدينة رمطة (Rametta)، ثم توجه روجر إلى مسينى، لكنه لقى مقاومة إسلامية قوية، دافع عن سور المدينة الرجال والنساء، وساءت أحوال الغزاة النورمان، ولجأ ابن الثمنة إلى قطانية (Catania) وفشل الغزاة فى هجومهم هذا، وأيقن النورمان أنه ليس كافيا أن يعتمدوا على عملائهم، أو على من معهم من المسلمين والمسيحيين لتحقيق هدفهم إلا إذا كانت لديهم قوة أكبر وخصوصا قوة بحرية.

وقام الأخوان روبرت وروجر فى صيف١٠٦١م - ٤٥٣هـ بهجوم ثالث على جزيرة صقلية تمكنا به من احتلال مدينة مسينى، وجعلها قاعدة لعملياتهم. ونقطة بداية الحملات القادمة.

هنا قام ابن الثمنة بدور الدليل للحملة النورمانية إلى داخل صقلية، فسيطروا على رمطة (Rametta)، واتجهوا نحو الداخل حتى وصلوا إلى قصريانة (Castrogiovanni)، ولكنهم أخفقوا فى الاستيلاء عليها مع أنهم رسخوا أقدامهم فى قلعتى تروينا (Troina) وشنت ماركو



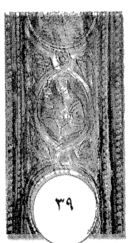
(San-Marco). كما أخفقوا كذلك فى الاستيلاء على جرجنت (Gergent)، وحدثت بعض التطورات التى أدت إلى عجز النورمان عن متابعة زحفهم فى صقلية، فقد حرم مقتل ابن الثمنة فى سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م - بواسطة كمين وُضِع - له النورمان من حليف مفيد. ثم وقع نزاع بين الأخوين روجر وروبرت حول اقتسام الأراضى المحتلة أدى إلى الحرب بينهما عند عودتهما إلى إيطاليا. وكان الخوف من اندلاع ثورة فى كلابريا هو الذى جعل روبرت يوافق على تقسيم كلابريا مع روجر وعقد معاهدة بينهم.

وهكذا استؤنف القتال مع مسلمى صقلية فى نهاية سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م، واستمر خلال السنة التى تلتها (٤٥٥هـ). ونجح النورمان فى تثبيت نفوذهم فى مسينى وترוينا، أما بقية الجزيرة فقد ظلت بأيدى المسلمين.

وفى سنة ٤٥٦هـ /١٠٦٣م هاجم المسلمون ترוينا ، غير أنهم هزموا بالقرب من سيرامى. وحاول كل من روبرت وروجر سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م - عبثاً - السيطرة على بلرم، حتى أرغما على رفع الحصار عنها بسبب المقاومة التى أظهرها المسلمون فى غرب صقلية ضد الغزو.

وخلال السنوات التى تلت كان التقدم بطيئاً باتجاه العاصمة بلرم بسبب، وجود الزيريين متمثلاً فى أيوب وعلى ابنى تميم بن المعربن باديس. إلا أن روجر استطاع أن يهزم أيوب بن تميم فى معركة قرب بلزم سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٨م ، مما حمله على العودة إلى إفريقية وبذلك خلا الجو من وجود شخص يوحد المسلمين فى جبهة واحدة ضد الغزاة وتبعثرت جهود المسلمين فى الجزيرة. وكان حصار روبرت لمدينة بارى البيزنطية فى إيطاليا قد جمد المعارك فى صقلية. لكن استيلاءه عليها سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م وفر له الأسطول اللازم لمعاودة الهجوم على جزيرة صقلية. فتمكن النورمانديون أولاً من الاستيلاء على قطانية Catane، ثم تقدموا لحصار بلرم فى آخر ربيع الثانى وبداية جمادى الأولى سنة ٤٦٤هـ/ يناير ١٠٧١م، واشترك فى حصارها كل من روبرت وروجر، فقاومت المدينة، ولكنها اضطرت بعدها إلى الاستسلام ، وتحولت إلى قاعدة حربية للنورمان.

وكان لامتناع المساعدات من شمال إفريقية أثر فى سقوط بلرم، التى بالسيطرة عليها انتهت المرحلة الأولى فى الاستيلاء على جزيرة صقلية. وقد حصل روبرت على حصة الأسد من الغنائم، وأرغم روجر على تسليمه الجزيرة بكاملها، كما وضع قسماً منها تحت سلطته المباشرة بضمها بلرم ونصف مسينى. بينما خصص القسم الباقى لروجر. وقد أدى سقوط بلرم إلى استسلام مدينة مازرا (Mazara). لكن خلال الاثنتا عشرة سنة التالية كان النورمان لا يملكون إلا قوة ضعيفة تحت إمرتهم، لذا كان تقدمهم بطيئا فى الجزيرة.



فبالرغم من أن النورمـان احتلوا كلاً من مسيـنى وقطانية وبلرم ومازرا، فإنه لا زالت هناك عشرون سنة من الغـزو أمام روجر. فالمسلمون لا يزالون فى المنطقة الجبلية بين مسينى وطبرمين. وأمراء وطنيون آخرون فى كل من سرقوسة وطرابنش وقصريانة، نجحوا فى استـمرار القتال لفترة طويلة. وفى هذه اللحظة بدأت حرب العصابات بين جنود روجر والمسلمين، واستطاع المسلمون قتل أحد قواد روجر المسمى سيرلو (Serlo) ، وهو ابن أخيه وشريكه فى الغزو.

وقد اتخـذت الحرب فى سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م طابع الشمـول والقوة التى كان ينقـصها فى البداية. إذ إن مـسلمى سرقوسة وجدوا جـندياً شجاعاً فى شخـص أميرهم بينفاريت (Benevart) الذى استطاع أن يهزم جوردن (Jordan) الابن غير الشرعى لروجر، وأدى هذا إلى استـدعاء الكونت روجر نفسـه، وفى هذه المرحلة أصبحت الحرب حـرباً صليبيـة حقاً، واستطاع روجـر احتـلال مدينة طرابنش سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م، ثم طبـرمين (Taormina) سنة ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م، ولم يبق بيد المسلمين إلا جرجنت وسرقـوسة وقصريانة ولوطس وبثيرة، ثم توقفت أعمـال الغزو النورماندى سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م، عندمـا رأى روجر أنه من الضرورى أن يحل قواته مـحل قوات أخيـه روبرت التى تحتل مسـينى، وقد يرجع ذلك إلى حـاجة روبرت إلى قواته لتنفيذ مشروعاته فى الأدرياتى.

وكان بينفاريت أميـر سرقوسة لا يزال قادراً على أداء مقاومـة باسلة. بل وأكثر من ذلك ، ففـى عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م تمكنت سـفنه من الهجـوم على ريو (Riggio) ونقطره (Nicotera) على الساحل القلورى بإيطاليا، ولكنه هُزم أخيراً بواسطة الجيوش التى جمعها الكونت روجر أخيراً فى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م ثم أبحـر روجـر فى نهـاية مايو ١٠٨٦م/ صـفـر ٤٧٩ هـ على رأس أسطوله ونزل ميناء سـرقوسة. وعندمـا التقى معـه فى معركـة بحرية، انتصـر فيها روجـر وغرق بينفـاريت نفسه خـلالها، فـاستسلمـت المدينة فى جمادى الأخـرة سنة ٤٧٩هـ أكتـوبر من السنة نفسـها. ثم فرض روجر حـصاراً صارماً على كل من جـرجنت وقصريانة حـتى اضطر أهلها من المسلمين إلى أكل الميـتة، فاسـتسلمت جرجنت سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م. بينـما صمدت قـصريانة بعدها ثلاث سنين، ثم اضطرت إلى التسليم بعد أن اشتـد عليها الحصار سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م، ثم سقطت بثيرة (Butera) ونوطس (Noto) فى السنة نفسها، واعـتبرت هذه السنة(٤٨٤هـ) نهاية لعمليات ستيلاء النورمانيين على جميع جزيرة صقلية بكاملها.

وبناء على ما تقدم يكون النورمان قد استغرقوا فى غزوهم التدريجى لصقلية حوالى ٣١ سنة (٤٥٣-٤٨٤هـ / ١٠٦١-١٠٩١م) منذ بداية هجومهم لأول حتى تمكنوا من السيطرة النهائية على

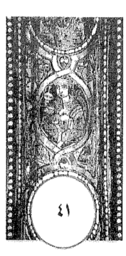
الجـزيرة. وكانت المقـاومـة التى لقيـهـا النورمان و قلة عـسـاكرهم وضـعف أسطولهم، من أهم العوامل التى أطالت فترة الغزو.

وبالرغم من أن مسـاعدة روبرت كانـت مهمـة فى بداية الغزو، إلا أن روجر أخذ دور القيادة، بينما احتـفظ روبرت بعد احتلال باليرمو (Palermo) فـقط وأبقاهـا تحت سلطته ،بـعيـداً عن السـيطرة الكاملة على الجـزيرة والتى أصبحت خاضعة لسلطة روجر بورسا خليفة روبرت الضعيف، وهو دوق أبوليا (٤٧٨هـ - ٥٠٥هـ / ١٠٨٥ -١١١١م) الذى سـلم نصف بلرم إلـى عـمـه روجر. وإذا كـان روجر هو المسيطر الحـقيـقى على صقلية، فـإنه فى ذات الوقت المؤسس للدولة النورمانية فى صقلية.

وتجدر الإشارة إلى مـا قاله أحد الباحثين عن مـسئولية سقوط صـقلية فى يد النورمان، إذ تساءل قـائلا: على مَنْ تقع تلك المسئوليـة؟ أعلى الفاطميين أصـحاب السيادة الاسـمية الشرعـية عليها؟، أم على حكام جزيرة صقلية أنفسهـم؟، أم على بنى زيرى أصحاب إفريقية الذين استنجد بهم أهل صقلية؟ ثم قال : وفى الواقع أننا لم نصادف أدنى إشـارة إلى أن الفاطميين حاولوا نجدة صقلية أثناء تعرضها للغزو النورماندى الذى اسـتمر أكثر من ثلاثين سنة، وإذا كانت صقلية «ملكاً لسلطان مصر تغادرها كل سنة سفينة تحمل المال إلى مصـر» على قول الرحـالة المعاصـر ناصر خـسرو، فلماذا تقاعس هذا السلطان عن الدفاع عنها، وعلى هذا فـالفاطمـيون مـسئولـون مسـئوليـة كبيـرة عن سقـوطها، ومن ناحيـة أخرى فإن حكام صـقلية ، وهم الذين مـزقـهم الحقـد والتنافس كـانوا سـبب استـثارة طمع النورمان فى جـزيرتهم، ألم يكن ابن الثمنة هو الذى استدعى النورمـان لامتلاك صقلية ؟ بالإضافـة إلى عدم الوفاق بين العـرب والبربر الذى أدى إلى رفض حكام صقلية لمساعدات تميم بن المعز بن باديس. ولذلك يتحمل حكام صقلية جانباً كبيراً من مـسئوليـة ضيـاع الجزيرة. أمـا من ناحيـة بنى زيرى، فالتاريخ يشهد بأنهم لم يتقاعسوا عن مد يد



تصوير جدارى بأسلوب فاطمى- كنيسة بلاتينا في باليرمو- صقلية



المساعـدة لصقلية أثناء الغـزو النورمانى، لولا أن أهل صـقلية أنفسـهم أساءوا مـعاملـتهم مما دفع الأسـطول الزيرى إلى أن يعـود أدراجه إلى مـدينة ومـيناء المهدية.

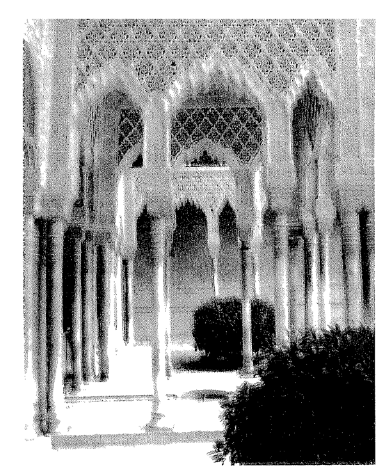
على أن أهم النتائج التى تمخضت عن سقـوط صقلية فى أيدى النورمان كانت هى : خـروجها من نطاق السـيادة العربـية لتصـبح فى قبضـة العناصر اللاتينية والكاثوليـكية، كما أن العـرب ظلوا لمدة ما يقارب القـرون الثلاثة من حكمهـم لها لا يسيطرون عـلى الجزيرة فقط، بـل كانوا يحاربون منـها جنوب إيطاليا والبيزنطيين والألمان واللمبارديين، لكن سقوط صقلية أنهى هذا الدور.

وباستيلاء النورمان على صقلية عادت إليـهم السيطرة على أجواء البحر المتوسط. بحيث لم نعد نـرى الوقت الذى وصف ابن خلدون فيـه النصارى أنهم لا يسـتطيعـون أن يطفوا لوحـاً من الخشب فى هذا البحر، بل أصبحت السيطرة فيه لـهم، كما ذكر الشاعر الصقلى أبو العرب عندما استدعـاه المعتمـد ابن عباد إلى الأندلس. واعتـبر ذلك الاحتلال النورمـاندى ضربة قاضيـة لنفوذ المسلمين، وفى ذلك يقول أحـد الباحثين : «وما زالت قـوة الإسلام فى البحر غالبـة وكلمته هى العليا حـتى خرجت صقلية من يدى الإسـلام»، وأن تكوين دولة نورماندية فى إيطاليا ثم صـقلية مكن النورمـان من السيطرة على مـالطة، فكسب غرب أوروبا السـيطرة على المضايق الحـيوية بين إفريقية وصـقلية. وبانتهاء عمليـات سقوط صقلية وزوال السيادة السـياسية للمسلميـن عنها، فقد «الرباط الكبيـر» الذى كان محرسـاً يحمى الشواطئ الإفـريقية من غزو الشـماليين، وتضعـضعت أحوال دولة بنى زيرى لانقسام جهودها بين الإعداد البـحرى لمواجهة الأساطيل النورمانية والإعداد البرى للقـضاء على الفتن التى يسـتغلها الـطامعون والمغـامرون بمعاونة القـبائل العربـية فى مناطق مختلفة من إفريقية. وتمكن النورمان فى صقلية مرتين من تهديد إفريقية العربية.

وقد اعـتبر كل من ابن الأثيـر وابن العبرى سيطـرةَ النورمان على صقليـة سببا فى سـقوط الأندلس. فكان غـزو جزيرة صقـلية بداية للحـروب الصليبـية، وفى ذلك يقـول كورتس : إن احتلال النورمـان لصقلية قد وضع إسفـينا جمهرة للدول الإسلاميـة التى تمتد من دجلة إلى أبرو، وبهذا أصبحوا المنفذين الحـقيقيين للحروب الصليبية، والمعروف أن هناك عـوامل مجتمعة أدت إلى الحروب الصليبـية كان أبرزها هو الاحتـلال النورمندى لإيطاليا وصقلية. فـمن أهم الأحداث التى جعلت الحـروب الصليبـية ممكنة هو تحطيم القـوة البحـرية الإسلاميـة فى وسط البحـر المتوسط، وباستيـلاء النورمان على صقلية صـارت الرحلة من مرسيلية وجنوة إلى الشـرق آمنة مؤكدة، وأن

التوصل إلى الدخول إلى الشرق براً وبحراً بشكل لم يحدث من قبل أبداً هو الذى أوجد الحروب الصليبية.

أما عن النتائج الاقتصادية يقول هيد Heyd: إن الغزو النورمانى لصقلية ترتبت عليه نتائج كبيرة لدول أوربا البحرية، فعوضاً عن أنه فتح لهم طريق دخول البلد الشهير بخصوبة أرضه منذ زمن بعيد (يقصد صقلية)، فإنه وضع فى متناول تلك الدول عديداً من المنتجات الطبيعية والمصنعة التى تمكن المسلمون من إقامتها مدة حكمهم الطويل كالسكر والبلح والقطن والحرير.



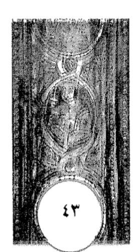
قصر ابن عباد بأشبيلية- الأندلس- عصر الطوائف

أحوال المسلمين فى صقلية النورمانية:

حكم النورمان صقلية قرناً من الزمن (١٠٩١ - ١١٩٤م)، ونظراً لقلة أعدادهم وكثرة الأعداء من حولهم، وبخاصة فى جنوب إيطاليا، فإن بعض ملوك النورمان أحسنوا معاملة المسلمين فى الجزيرة لاستمالتهم إليهم، كما اعتمدوا عليهم فى جيوشهم، وأفادوا من مهارة المسلمين فى الجزيرة فى فنون الحرب كبناء المجانيق وأبراج الحصار المتحركة، فى حروبهم المستمرة فى جنوب إيطاليا ضد البيزنطيين تارةً، وضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة تارة، وضد قوات الباباوات وحلفائهم تارةً أخرى، لذلك فإن ملوك النورمان- فى بادئ الأمر على الأقل- قاموا بمحاولات بدأتها الكنيسةٌ لتنصير المسلمين وحموهم ما استطاعوا من اضطهاد الإقطاعيين من الفرسان والمستوطنين الجدُد من اللمبارد.

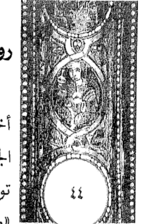
فسيفساء لملك نورماندى وجندى- صقلية





ولما كان النورمـان حديثى عهـد بالحضارة، فـإنهم اعتمدوا عـلى المسلمين فى الإدارة وفى الدواوين والبـلاط الملكى، وفى أعمـال البناء والتشـيـيـد، والزائر لصقليـة اليوم يلاحظ أن الكاتدرائيات والقـصور من عهد النورمـان فى الجزيرة ذات طابع معمارى وزخرفى إسلامى، تماماً كمـا هو الحال فى إسبانيا النصرانية التى اعتمدت على مهرة الصناع من المسلمـين فى كثير من أعمال بناء الكنائس والقصـور. وكان لروجر الثـانى عباءة ملكيـة صُنعتْ سنة ٥٢٨هـ بدار الطراز على حاشيتـها كتابة عربية بالخط الكوفى. كما أحـاط روجار هذا نفسه، على غرار مـا درج عليه ملوكُ المسلمين، بالمداح من الشـعراء، وتحت رعايتـه صنف الشريف الإدريسى كتاب (نزهة المشتاق) المعروف بكتاب رجار فى الجغرافيا، وظلت العملة العربيةُ هى العملة المتداولة فى صقلية وجنوب إيطاليا، تمـاماً كما كانت الدنانير / المثاقيل المـرابطية والموحدية هى المتداولة فى ممالك إسبانيـا المسيحية حتى بعـد تقلص نفوذ المسلمين وسيـادتهم فى الأندلس وطوال فترة حكم النورمان لجزيرة صـقلية ظلت عملاتهم تُضـرب عليها كتـابة عربية بالخط الكوفى، وبعضـها كان يحمل التاريخ الهجرى وعبارة (محمد رسول الله).

كنيسة سان چيوفانى ذات الأسلوب المعمارى العربى- (ربما كانت مسجدا وتحولت بعد زوال حكم المسلمين)

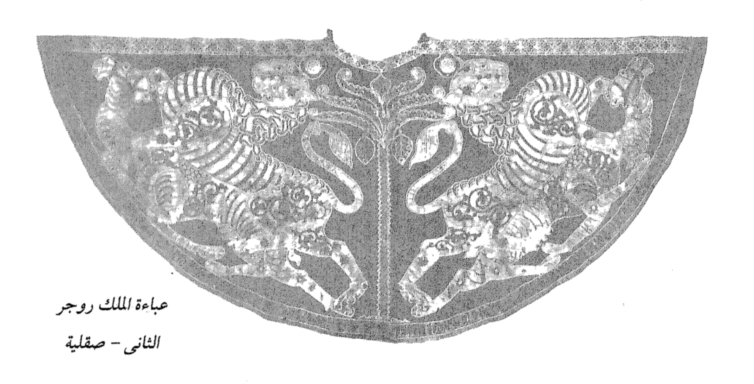


روجر الأول (١٠٩١ - ١١٠١م):

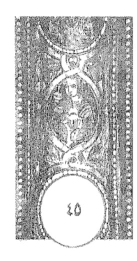
اقتسم الأخـوان روبرت جيسكارد روجر صقلية بينهمـا، وسمى روبرت أخاه روجـار كونت (قومـس) صقلية، ثم لم يلبث أن تـعزز مركـز روجر فى الجزيرة بعـد وفاة أخيه (١٠٨٥م)، وكـون جيشاً جله من المسلمـين أعانه على توطيد الأمن والاسـتقرار فى الجزيرة، ويقـول الإدريسى عن الكونت روجر : «ولما صار أمـرها إليه».. نشر سـيرة العدل فى أهلهـا ، وأقرهم على أديانهم وشرائعهم، وأمنهم فى أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم، ثم أقام على ذلك مدة حياته.. ".

ويؤيد ذلك من الجانب المسيحى ما ذكره وليام غليام الأبولى ومالاترا (Malaterra) من أن روجر لما فـتح بلرم (يناير ١٠٧٢م) وعـد المسلمين بأن لا يؤذيهم بشىء، وان لا يُكره أحـداً على تبديل دينه. وكان من مصلحة روجر أن يستميل المسلمـين ليساندوه ضد الخروج على طاعته، كما كان يحدث كثيراً للملوك فى بعض ممالك أوروبا التى تفـشى فيها نظامُ الإقطاع آنذاك. وكان أفرادُ البيت النورمانى الحاكم انتـهازيون إلى أبعد حد، فقد أحسنوا مـعاملة المسلمين طالما كان ذلك فى مصلحتهم الشخصية.

والحق لقد تميـزت سنوات حكم الكونت روجر الأول بالتسـامح الدينى، ولم تحدث ثورات داخلية ضده، وقد رفض ضغـوط الكنيسة الكاثوليكية عليه لتنصير المسلمـين لأسباب تتعلق بكيان



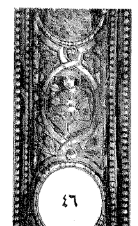
عباءة الملك روجر الثانى – صقلية



دولته وأمنها، فقد كان المسلمون يشكلون أكثرية السكان، كما كان العنصر الإسلامى بارزاً فى جيشه. ويحدثنا صاحب سيرة القديس أنسيلم (St.Anselm) بأن روجر منع رجال الدين الكاثوليك من تحويل جنوده المسلمين إلى المسيحية. ومع ذلك، فإن الكونت روجر بادر إثر دخول باليرمو إلى تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، وكذلك فعل ببعض مساجد المدينة مما حدا بمؤرخ أوروبى إلى التعليق على ذلك بقوله: "وهذا موجز للرحمة التى كانت أوروبا تقدمها دائماً للعرب، فهى مشروطة بالقضاء على دينهم، وفى عزلهم ليكونوا جماعة ذات كيان منفصل".

ومن الناحية الاقتصادية، كان الغزو النورمانى لصقلية ذا أثر سيئ على أوضاع المسلمين الاقتصادية والمعيشية فى الجزيرة. ففى أثناء القتال دمرت القرى على نطاق واسع، وكان على المسلمين - كاليهود - دفع إتاوة أو جزية مرتين فى العام، مما أدى إلى هجرة أعداد منهم إلى إفريقية. وبدخول النورمان إلى الجزيرة دخلها النظام الإقطاعى. فأقطع روجار أقرباءه وأصحابه أراضى واسعة كانت للمسلمين، واتخذ هؤلاء المقطعون المسلمين فى الأرياف عبيداً أو أقناناً فى أراضيهم - وهم المشار إليهم فى السجلات النورمانية، التى احتفظت باسمها العربى الدفاتر، باسم رجال الجرائد، أما أهل المدن، فقد كانوا أحسن حالاً نسبياً إذ كان تسليمُ مدنهم، كما حدث فى بلرم، بموجب اتفاقيات حفظت لهم- ولو إلى حين- حقوقهم المدنية والدينيه فى حين أن أهل الضياع والقرى فقدوا معظم أراضيهم للفرسان النورمان والكنيسة. وأصبح الكثيرون منهم عبيد أرض للسادة الجدد، ولعل ذلك يفسر قول ابن الأثير: وملك روجار جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحدٍ من أهلها حمّاماً ولا دكاناً ولاطاحونا ولا فرناً".

كان المسلمون عند استيلاء النورمان على صقلية يشكلون أكثرية السكان فى إقليم مازرغرب الجزيرة ،كما كانوا يكونون نسبة كبيرة من السكان فى جنوبها الشرقى إقليم نوطس، أما فى الركن الشمالى الشرقى من الجزيرة فقد كان المسلمون أقلية متناثرة فى إقليم دمنش. إلا أن خريطة الجزيرة السكانية لم تلبث أن أخذت فى التبدل على حساب المسلمين، لتوالى هجرة المسلمين من الجزيرة إلى إفريقية والأندلس والمشرق، ولوفود جماعات من النورمان من شمال فرنسا، ثم لتوالى هجرة اللمبارد من جنوب إيطاليا، وكان هؤلاء اللمبارد شديدى التعصب ضد المسلمين، وقد ارتكبوا ضدهم ألواناً من الاضطهاد طوال العهد النورمانى، وهم فى ذلك شبيهون بالوافدين الجدد من الصليبيين إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين الذى يتحدث أسامة بن منقذ عن شدة تعصبهم الدينى نحو المسلمين كما لمس ذلك بنفسه فى بيت المقدس.



ويوضح شعور العـرب واستياؤهـم لما آل إليه وَضع مسلمى صـقلية بعد وصول النورمان قـولُ الشاعر عبـد الحليم بن عبد الواحد (وهو إفـريقى المنشأ صقلى الدار) :

عشقتُ صقـــليــة يافعـــاً　　وكـــانت كبعض جنان الخلود

فما قدر الوصل حتى اكتهلت　　وصـــارت جهنم ذات الوقود

روجر الثانى (١١١١ - ١١٥٤م) :

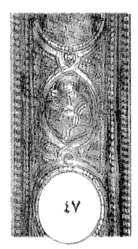
بعد فـترة من الوصاية لأمـه أدلايد، تولى روجر أمر صقليـة، وروجر الثانى أشـهرُ ملوك النورمان، وهو الذى وسع مملكة النورمان فى جنوب إيطاليا، وانتزع لـنفسه من البابا - لقاء تأييده ضـد خصـومه - لقب "ملك صـقلية" عـلـم ١١٣٠م، بعد أن كـان أبوه يحمل لقب «كـونت» (قومس)، يقول الإدريسى : "أقام الدولة، وزين المملكة وشرف السلطنة، وأعطى الأمور أقساطها من النظر الجلى والعقل المرضى، مع نشور العدل وإقامة الأمان" .

ونظراً لما لقيـه من معاداة البيـزنطيين وأباطرة الإمبراطورية الرومـانية المقدسة الطامـعين فى مملكته ، فإن روجر سار على سياسة أبيه فى تجنيد المـسلمين والاعتماد عليهم فى مواجهة أعدائه، يقول ابن الأثير: " إن روجر أكرم المسلمين وقربهم، ومنع عنهم الفرنج فأحبوه" . والحق أن روجر وجد من مصلحـته- إزاء الأخطار المحدقة به - أن ينتهج سيـاسة توازن الطوائف والملل والعناصر بين رعاياه.

ومما يُذكـر أن الملك روجر الثـانى (استـولى على جزيرة جـربة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م فى شـمال إفـريقيـا ، وعلى طرابلس الغـرب سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، وعلى المهـدية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٧م، وعلى معظم مـدن الساحل التـونسى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، وعلى بونة لاعنابة سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) وأضاف إلى ألقابه لقب "ملك أفريقية" .

وقد سـهل عليه أمر الاسـتيلاء على مـوانئ إفريقيـة حالةُ الضعف والتـفكك السائدة هناك بسبب الفرقة والمنازعات، وسوءُ الأحوال الاقتصادية بسبب توالى أعوام الجفاف والقحط.

ومما حفزه على الاستيـلاء على موانئ الساحل الأفريقى أن المسلمين ما فتـئوا يغيرون منها على مراكب النصارى وعلى سـواحل صقلية، إذ لم ينسوا ضياع صقليـة من أيدى المسلمين، تماماً كما حدث بعـد ذلك بأربعة قرون بالنسبة لمراكب الإسبـان وسواحل الأندلس على أيدى النازحين



من الأندلسيين، فكما أن الإسبان سعوا فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى إلى الاستيلاء على عدد من موانئ الشمال الأفريقى، أملاً فى وقف إغارات النازحين الأندلسيين، كذلك فعل النورمان فى منتصف القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى بالنسبة لموانئ إفريقية.

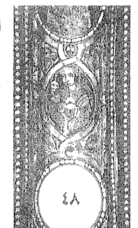
ولا شك فى أن مما يسر الأمر فى صقلية بالنسبة للنورمان انشغال المرابطين فى تلك الفترة بقيام الموحدين الذين قضوا نهائياً على دولة المرابطين (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) ولم يتفرغ الموحدون للنورمان إلا بعد ذلك ببضع عشرة سنة.

لقد عرف روجر الثانى قيمة الحضارة الإسلامية واستفاد منها، وقلد العرب مناصب سامية فى دولته، وله وتحت رعايته ألّف الإدريسى كتابه (نزهة المشتاق)، وسماه كتاب روجار، وفى مقدمة الكتاب وصف الملك «بالملك المعظم المعتز بالله المقتدر بقدرته»، ولا شك أن جود الإدريسى -العالم الجغرافى الكبير والشريفى المحتد- رفع من مكانة روجر فى أعين رعاياه من المسلمين، ولذلك ليس من الغريب أن يتناقل الناس إسلامه.

ولقد وصفه ميخائيل أمارى بأنه "سلطان عربى يحمل تاجا كملوك الفرنج"، واتهمه النصارى بأنه كافر. ودفعاً للظن عن نفسه، فإن روجر أقبل على تشييد الكنائس، كما أنه شجع فى أواخر أيامه حركة التنصير بين المسلمين واليهود. وقبيل وفاته، غضب روجر على قائد أسطوله فليب المهدوى ؛ لأنه أغضى عن جماعة من صلحاء المسلمين وعلمائهم عند استيلائه على بونة (عنابة) سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى المجاورة. فلما وصل إلى صقلية أمر روجر بالقبض عليه، وعن ذلك يقول ابن الأثير : «وكان فليب يقال إنه وجميع فتيانه مسلمون ويكتمونه، وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك وأنه مسلم. فجمع رجال الأساقفة والقسوس والفرسان، فحكموا بأن يُحْرَق فأُحْرِقَ فى رمضان، وهو أول وهن دخل على المسلمين بصقلية»، وقد يكون من أسباب تغير سياسة رجال فى أواخر أيامه ظهور دولة الموحدين كقوة كبيرة فى المغرب، مما هدد مواقع النورمان على الساحل الأفريقى، بل ووجودهم فى صقلية ذاتها.

وليم / غليام الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) :

فى السنوات الأولى من حكم وليم (غليام) الأول زاد نفوذ كبير وزرائه(مايو) مايون زعيم حزب القصر الذى ناصره كثير من المسلمين لاعتمادهم- وبخاصة فتيان البلاط وحجابه- على الملك لحمايتهم من بطش حزب النبلاء المعادى والذى كان يمثله المؤرخ النورمانى فلقندوا، وهو



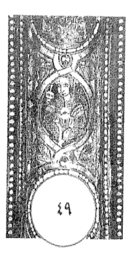
الذى أضفى على الملك وليام / غليام الأول صـفة السيئ، وهى صفة لم يكن الملك فى الحقـيقة يسـتحقـها، وإنما نعتـه فلقندو بذلك لا لشىء إلا لأنه أبدى تسامحاً نحو المسلمين.

ومع أن المسلمين ظلوا أتبـاع الملك الذى كان حامـيهم فى جو مشـحون بالعداء نحـوهم من جانب النبلاء والـلمبارد ورجال الـدين النصارى، إلا أنهم دفعوا ثـمن انتصار الموحدين على النورمـان فى المهدية (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) إذ انتعشت آمـالهم بظهور قوة الموحدين، وبعد إخراج النورمـان من مدن الساحل الأفريقـى ما بين عامى ١١٥٦ - ١١٦٠٠م) لـذلك، وتحوطا، فقـد جُرّد المسلمـون فى بلرم من السلاح، مما جعلهم لقمـة سائغة للبارونات والوافدين من اللومبـارد فى الثورة التى قام بها هؤلاء ضد الملك ووزيره وفتيانه (١١٦٠ - ١١٦١م).

وفى تلك الثورة الدامـية اغتيل الوزير مـايو/ مايون، والعديد من فتـيان القصر ومـوظفيه المسلمين، كما قُتل كـثير من المسلمين فى أحياء بلرم وسلبت أموالهم "وقتل الفـرسان كثيرين فى متـاجرهم وفى الدواوين، ومن وجـدوه يتجـول خارج منزله فى شـوارع المدينة"، وعلى أثر هذه المذابح لم يعد المسلمون يستشعرون الأمن فى وسط مدينة بلرم، فتجمعوا فى حى من المدينة يسهل عليها منه الدفاع عن أنفسهم، وكان من بيـن ضحايا هذه الثورة الدموية - وهى الأولى من نوعها فى العهد النورمانى - الشاعر القفصى يحـيى بن التيفاشى، ولعل الإدريسى كان من بين ضحاياها أيضاً.

وكذلك كانت أحوال المسلمين فى الأرياف أسوأ من ذلك، إذ تعرضوا لفتك نبلاء النورمان وأتباعهم، ونجا بعضهم متزييا بزى النصارى، وقد انتابهم رعب شديد فى المناطق التى كان يسكنها اللمبـارد، حتى إنهم ظلوا يتحاشـون المرور بتلك المناطق ما أمكنهم ذلك. ولما استـرد الملك زمام الموقف وقمع الثورة، بادر إلى اتخاذ إجراءات صارمة ضد الثائـرين مستعيناً بجيشه الذى كان يضم عدداً وافراً من الجنود المسلمين.

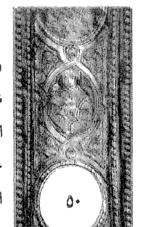
إن العداء ضد المسلمين من جانب الإقطاعيين من البارونات ومن جانب الأعداء المتزايدة من اللمبارد الذين وفدوا من إيطاليـا للاستقرار فى الجزيرة، كان مبعثه الـتعصب الدينى، ثم الغيرة لما كان للمسلمين من مناصب ونفـوذ فى القصر ونشاط فى مجال التجارة كـذلك فإن الإقطاعيين ما فتئوا يحاولون توسيع ممتلكاتهم بانتـزاع المزيد من الأراضى من أيدى المسلمين بحجة أنها كانت فى الأصل للنصارى.



أضف إلى ذلك ظهور قوة الموحدين وخشية النصارى من تواطؤ مسلمى صقلية معهم لإعادة السيادة الإسلامية على الجزيرة. ولم يكن شعور مسلمى صقلية هذا بالأمر المستغرب. فقد كانوا دائماً يتلقفون- عن طريق الحجاج والتجار المسلمين المارين بالجزيرة- أخبار المسلمين فى المشرق والمغرب، كما يتبين ذلك مما ذكره الرحالة الأندلسى ابن جبير فى رحلته، ويقول الأهروى أنه اجتمع فى صقلية بالقائد ابى القاسم بن حمود زعيم مسلميها فسلمه كتاباً إلى السلطان الموحدى يحثه فيه على الاستيلاء على الجزيرة، وعند مرور ابن جبير بصقلية (٥٨٠هـ/ ١١٨٥م) كان أبو القاسم ابن حمود مغضوباً عليه من الملك النورمانى، إذ كما يقول ابن جبير، «ألزمه داره بما طلبةٍ توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين، أيدهم الله، فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى دون مال»، ومما يُذكر أن الشاعر المصرى ابن قلاقس كان قد حل ضيفاً على ابن حمود (٥٦٣هـ / ١١٦٨)، قبل أن ينكبه الملك النورمانى، ومدحه بعدة قصائد وألف له كتاب (الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم).

لقد كان القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى فترة اندلاع الحروب الصليبية فى المشرق، كما كان كذلك فترة بزوغ الدولة الموحدية فى المغرب والأندلس؛ ولذلك فليس من الغريب أن نجد العامل الدينى ذا أثر كبير فى أوضاع المسلمين الذين شعروا بالانقطاع عن دار الإسلام، وبأنهم صاروا رهائن تحت رحمة النصارى؛ لهذا ينقل لنا ابن الأثير ما قاله صاحب صقلية وليام / غليام الأول وقت استيلاء السلطان الموحدى عبد المؤمن بن على على المهدية (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) : «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية، قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم» مما يبين بأن مسلمى صقلية أصبحوا كالرهائن يتصرف بهم حسبما تملى عليه الظروف وعلاقاته بالدول الإسلامية خارج الجزيرة.

ومما يبين اشتداد روح الاضطهاد الدينى فى الفترة التى أعقبت إخراج النورمان من شمال إفريقيا ما حدث لروبرت كالاتابيانو الذى اتهم ـ كما حدث من قبل لفليب المهدوى فى نهاية حكم روجار الثانى (٥٤٨هـ/ ١١٥٤م) ـ بإظهار النصرانية وحسن معاملة المسلمين، فاضطهده وزج به فى السجن حيث مات مسجونا. «وبالتأكيد فقد كان أمرا خطيرا بالنسبة لمسيحى ـ حتى أو بالأخص إذا كان ثريا ـ أن يكون له أصدقاء من العرب، حتى أو بالأخص إذا كان هؤلاء من رجال البلاط».



ومع ذلك فإن المسلمين فى صقلية رأوا فى الملك حاميهم ضد الفرسان واللمبارد وغلاة النصارى المتربصين بهم. فآزروه عليهم لردعهم وخضد شوكتهم. ويقول فلقندو : إن نساء بلرم المسلمات شيعن نعشه (وليام / غليام الأول) يوم مات بدموع صادقة لا تشبه الدموع الرسمية التى كانت تسيل من عيون سائر النداب, وبعد وفاة وليام / غليام الأول وتولى أرملته الوصاية على ابنها. قدمت عام ١١٦٧م شكاوى من النصارى ـ وبخاصة اللمبارد ـ فى بلرم ضد مسلمين يشغلون مناصب كانوا قد تنصروا ولكن خصومهم اتهموهم بكتمان إسلامهم.

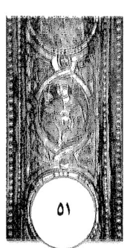
لذلك فقد رأى بعض المسلمين. بما فيهم رئيس حجاب القصر، أن الوقت قد حان للنزوح إلى ديار الإسلام فى المغرب ببعض مالهم.

كان وليام / غليام الثانى فى الثالثة عشرة من عمره عند وفاة أبيه، ولم يباشر الحكم بنفسه إلا فى عام ١١٧١م. وبخلاف أبيه، فقد كان محبوبا من رعاياه النصارى؛ ولذلك أطلقوا عليه لقب "الطيب"(The Good). ولعل رضاهم يرجع إلى موقف هذا الملك من رعاياه المسلمين، وإلى نشاطه فى محاربة المسلمين فى المغرب والمشرق.

فقد جهز حملات عبر البحر المتوسط بدافع دينى فى المقام الأول، وكذلك لحماية تجارة صقلية الخارجية، ولتأمين المواصلات البحرية بين أوروبا والأراضى المقدسة أثناء الحملات الصليبية. وفى الفترة ما بين سنتى١١٧٤م-١١٧٨م شن أسطوله عدة غارات على سواحل مصر دون جدوى، بفضل ما كان السلطان صلاح الدين الأيوبى قد أعده من قوة عسكرية مصرية.



صلاح الدين فى الحروب الصليبية - مكتبة فرنسا الوطنية



وفى عام ١١٨٠- ١١٨١م أرسل وليـام الثانى أسطولا لمهاجمـة الجزائر الشرقية (جزر البليار) التى كانت آنذاك تحت سيطرة بنى غانية المرابطين. ولكن الحملة باءت بالـفشل، إذ كان الجنويون حلفـاء وليام الثـانى قد عقـدوا صلحا منفردا مع بـنى غانية. وأبرم وليـام الثانى فى هذه الفـترة معـاهدة مع السلطان الموحدى أبى يوسف يعقوب المنصور لأسبـاب تجارية، فضلا عن عداء الجانبين لبنى غانية.

وكان وليـام الثانى من بين أول من حـمل الصليب من ملوك أوروبا فى بداية الحملة الصليبـية الثالثة (١١٨٩-١١٩١م) التى قامـت إثر انتصار السلطان صـلاح الدين الأيوبى فى معـركة حطيـن (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) واستـرداده لبيت المقـدس من أيدى الصليبيين. ومع أن وليـام الثانى لم يشارك شخصيا فى الحملة الصليبـية الثالثة إلا أن أسطوله لعب دورا مهما فى العـمليات الحربية قرب ميناء اللاذقية. ويـعلق على ذلك مؤرخ حديث بقوله : «لم يحكم البلاط النورمانى شديد الحماس للفكرة الصليبيـة، إلا أنه كان دائما على استعداد لاستغلال ولاء النصارى لهذا الغرض».

كان وليام كأبيه وجده من قبله ملما بالعربية، كـما كان يولى اهتماما كبيرا للعلوم والمعارف الإسلامـية وبخاصة فى مـجال الطب والفلك, وقد كـانت فترة حكمـة فترة مهـددة للإسلام فى الداخل. وكانت أوضاع المسلمين فى صقلية فى عهد وليام الثانى واضحة بفضل ما تركه ـ الرحالة الأندلسى ابن جبـير فى رحلته الشهـيرة. فقد مـر الرحالة الأندلسى ابن جبيـر بصقليـة فى طريق عودته إلى بلاده بحرا بعد تأدية فريضة الحج، وكان ملكها آنذاك وليام / غليام الثانى. وأمضى ابن جبير فى الجـزيرة قرابة أربعة شهور، وترك لنا فى رحلته انطباعـات تلقى ضوءا ساطعا على وضع المسلمين فى الجزيرة بعد قرن من انتهاء السيادة الإسلامية عليها.

وما ذكره هذا الفقـيه والأديب الأندلسى يعد بحق وثيقة تاريخية صادقـة وبالغة الأهمية عن أوضاع المسلمين فـى الجزيرة لذلك العهد. وقد دون ابن جـبير انطباعاته عـلى شكل يوميات أورد فيها مـارآه بنفسه وما سمعه من المسـلمين الذين اجتمع بهم. وصل ابن جبير إلـى ميناء "مسينه" قادما على ظـهر مركب جِنْوِىّ أقله ورفاقـه الحجاج من عكا بفلسطين. وعن المسلمين فـى مسينه يقول ابن جبير أنة ليس فيها من المسلمين إلا نفر يسير من ذوى المهن؛ ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب. وهـو بذلك يؤكد ما هـو معروف من أعـداد المسلمين فى الركـن الشمالى الشـرقى من الجزيرة كانت قليلة. بخلاف الحال فى الأجزاء الجنوبية والغربية منها.

ويحدثنا ابن جبير عن الملك النورمانى وليام غليـام الثانى فيقول : «وشأن هذا الملك عجيب فى حسن السـيرة واستـعمال المسلـين واتخاذ الفـتيان المجاذيـب، وكلهم أو أكثرهم كـاتم إيمانه



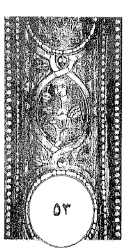
متمسك بشريعة الإسلام ... وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم. ووزراءه وحجابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة، هم أهل الدولة ... ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته، على ما أعلمنا به أحد خدمه المختصين به : الحمد لله حق حمده. وكانت علامة أبيه: الحمد لله شكرا لأنعمه».

ويثنى ابن جبير على أولئك الفتيان المسلمين فى خدمة الملك لصلبهم وافتكاكهم الأسرى من المسلمين. ومع ذلك فإنهم كانوا يكتمون إيمانهم ويبدون التحفظ والحذر. من ذلك أن ابن جبير لقى منهم بمسينة «فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم وكبرائهم... فاحتفل فى كرامتنا وبرنا، وباح لنا بسره المكنون بعد مراقبة منه مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه ... وقال لنا : انتم مدلون بإظهار الإسلام ... ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا معتقلون فى مملكة كافر بالله، قد وضع فى أعناقنا رقبة الرق، فغايتنا التبرك بلقاء مثلكم من الحجاج ...». ويضيف ابن جبير أن «من عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذا من مجلسه فيقضمن صلاتهم ...» وعلم ابن جبير أنه كانت قد وقعت فى صقلية زلازل فكان هذا المشرك (وليام الثانى) يتطلع فى قصره فلا يسمع إلا ذاكرا لله ولرسوله من نسائه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم : ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به، تسكينا لهم».

وبعد أن أمضى ابن جبير تسعة أيام فى مسينة. توجه بحرا قاصدا العاصمة بلرم التى يقول أن المسلمين يعرّفونها "بالمدينة" أو "بمدينة صقلية"، بينما يعرفها النصارى باسم "بلارمه "، فمر بمدينة شفلودى على ساحل صقلية الشمالى، ولاحظ أن المدينة تسكنها طائفة من المسلمين، ثم مر ببلدة ثرمة "وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد". ومن ثرمة توجه ورفاقه برا إلى بلرم.

أقام ابن جبير فى العاصمة بلرم أسبوعا وترك لنا وصفا حيا شائقا لأحوال المسلمين فيها: «وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان، يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ؛ ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكانهم عن النصارى. والأسواق معمورة بهم. وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحذورة عليهم. ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسى. ولهم بها قاض يرتفعون إلية فى أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ... وأما المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريتهم ولا أبنائهم».

من هذا يتبين أن مسلمى بلرم كانوا يعيشون فى حالة فزع مستمر من الاضطهاد والبطش.

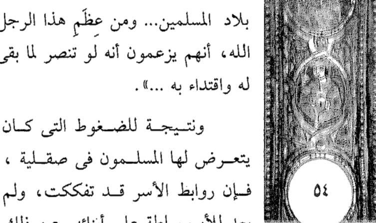


كما يلاحظ بأن الخطبة فى العيدين تكون الدعوة فيها للخليفة العباسى، وكان ضعيفا نائيا فى بغداد، وليس للخليفة الموحدى القوى الأقرب إليهم فى المغرب، وذلك للعداء المستمر بين الموحدين والروم سواء فى الأندلس أوفى صقلية النورمانية.

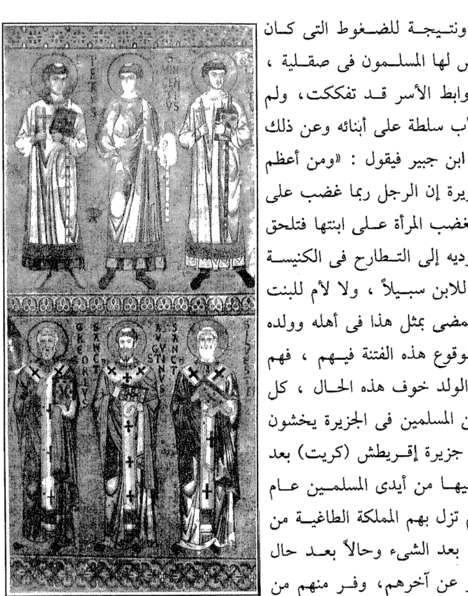
ويتحدث ابن جبير عن الإتاوة التى فرضها النورمان على مسلمى الجزيرة، فضلا عن القيود الأخرى، فيقول إنهم "ضربوا عليهم إتاوة فى فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها".

ومن باليرمو قصد ابن جبير ميناء اطرابنش (Trapani) فى غرب الجزيرة، وهو الميناء الذى كان يبحر منة الحجاج والتجار المسلمون المتوجهون إلى الأندلس والمغرب، ومر فى الطريق ببلدة علقمة (Alcmo)، ولاحظ أن سكانها وسكان الضياع فى الطريق كلهم مسلمون، مما يدل على أنه حتى بعد قرن من زوال السيادة الإسلامية على الجزيرة بقيت الأجزاء الغربية منها، وبخاصة الأرياف، مأهولة بالمسلمين.

طال مقام ابن جبير فى اطرابنش مضطرا، وذلك لتعذر الإبحار منها بسبب الأنواء والأحوال الجوية، وقد مكنه ذلك لحسن الحظ من التعرف على المزيد من أحوال مسلمى البلدة ومسلمى صقلية عامة. فترك لنا معلومات بالغة الأهمية عن حالة القلق التى كان يشعر بها مسلمو الجزيرة وخوفهم مما يخبئة لهم المستقبل : فهو(ابن جبير) يقول لهم: «وفى مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل الجزيرة مع عبّاد الصليب بها. دمرهم الله، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهد الذمة وغلظة الملك ... فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم (يعنى بلرم) ...» ويعرف «بابن زرعة». ثم يحدثنا ابن جبير عن اجتماع بزعيم مسلمى صقلية القائد ابى القاسم بن محمود، المعروف بابن الحجر. وقد قدم اطرابنش أثناء مقام ابن جبير فيها، فيقول : " وكان هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية (وليام الثانى) ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين ... وتوالت عليه المصادرات التى أغرمته نيفا على الثلاثين ألف دينار مؤمنية (نسبة لعبد المؤمن بن على أول سلاطين الموحدين) ... فاتفق فى هذه الأيام رضى الطاغية عنة وأمره بالنفوذ لهم أشغاله السلطانية، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنة عند وصوله إلى هذه البلدة (يعنى إطرابنش) رغبة فى الاجتماع بنا، فاجتمعنا به، فأظهر لنا من باطن حاله، وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يُبكى العيون، ويذيب القلوب ألما، فمن ذلك أنه قال: كنت أود أن أُباع أنا وأهل بيتى، فلعل البيع يخلصنا مما نحن فيه، ويؤدى بنا إلى الحصول فى



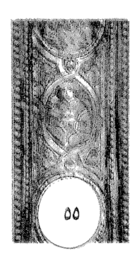
بلاد المسلمين... ومن عِظَمِ هذا الرجل حمودى فى نفوس النصارى، أبادهم الله، أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله اتباعا له واقتداء به ...».



قديسون- تصوير جدارى كاتدرائية سيفلو- صقلية القرن ١٢م

ونتيجة للضغوط التى كان يتعرض لها المسلمون فى صقلية ، فإن روابط الأسر قد تفككت، ولم يعد للأب سلطة على أبنائه وعن ذلك يحدثنا ابن جبير فيقول : «ومن أعظم ما ابتلى به أهل هذه الجزيرة إن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته ، أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ، فلا يجد الأب للابن سبيلاً ، ولا لأم للبنت سبيلاً ، فتخيل حال من يمضى بمثل هذا فى أهله وولده ، ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر فى مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال ، كل ذلك جعل بعيدى النظر من المسلمين فى الجزيرة يخشون أن يحل به ما حل بمسلمى جزيرة إقريطش (كريت) بعد استيلاء البيزنطيين عليها من أيدى المسلمين عام ٩٦١م(٣٥٠هـ) ، فإنه لم تزل بهم المملكة الطاغية من النصارى والامتزاج الشىء بعد الشىء وحالاً بعد حال حتى اضطروا إلى التنصر عن آخرهم، وفر منهم من قضى الله بنجاته.

مما ذكره ابن جبير يُستخلص أن المسلمين فى جزيرة صقلية بعد قرن من زوال السيادة الإسلامية عن الجزيرة ، كانوا معرضين للقيود والاضطهاد. فبعضهم تنصر مكرهاً ولكنه كان يكتم إيمانه ، وصلاة الجمعة كانت محظورة عليهم ، وكان عليهم دفع إتاوة تقابل الجزية التى كان أهل الذمة يدفعونها للمسلمين ، وكانت عملية التنصير قائمة وتلقى التشجيع من جانب الكنيسة ، وأخيراً فإن زعماء المسلمين ، كأبى القاسم بن حمود، كانوا دائماً عرضة للاتهام بالتواطؤ مع الموحدين. وكان الموحدون آنذاك فى أوج قوتهم فى المغرب والأندلس ، فليس من الغريب أن يتطلع مسلمو



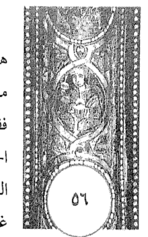
صقلية إلى عونهم ونجدتهم، كما تطلع مسلمو الأندلس إلى نجدة المرابطين قبل ذلك بقرن من الزمن. وأن ينظر النورمان بالتالى بعين الريبة إلى رعاياهم المسلمين. وكل ذلك كان يشجع على الهجرة إلى أرض الإسلام ، وهذه الرغبة كثيراً ما عبر عنها لا بن جبير زعماء المسلمين فى الجزيرة فى أحاديثهم الخاصة معه. وكما يقول مورينو "الحاصل كان التوازن بين أتباع الديانتين عادم القرار، رغما عن مجهودات الحكام ، فما كان للمسلمين أن يرضوا بالخضوع بعد أن كانوا أسياداً، وأن لا يتطلعوا إلى إعادة الأمور إلى نصابها.

تانكريد (١١٩٠ - ١١٩٤):

لم يُخلف وليام / غليام الثانى عقباً ، فأوصى بأن تخلفه على عرش صقلية عمة كونستانس ابنة روجار الثانى التى كانت متزوجة من الإمبراطور الألمانى هنرى السادس. إلا أن النبلاء الإقطاعيين فى صقلية اختلفوا فيما بينهم وأتى فريق مناهض للألمان منهم فى عام ١١٩٠ ، بتانكريد إلى العرش ، وكان تانكريد هذا حفيداً غير شرعى لروجار الثانى.

وقبل أن يتولى تانكريد المُلكَ، حدثت مذبحة للمسلمين فى بلرم عام٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، وكان تانكريد شديد التعصب ضد المسلمين، فليس من الغريب لذلك أن يتشاءموا عند توليه الملك، بتأييد من أعدائهم، وأن يقوموا بثورة عارمة شغلته طوال السنة الأولى من حكمه (استمرت

الكاتدرائية التى توج فيها الملك فريدريك الأول - قائد الحروب الصليبية



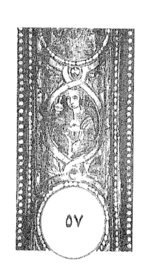
هذه الثورة من نهاية ١١٨٩ إلى أكتوبر عام ١١٩٠م). ونظرا لتعرض مسلمي بلرم للمذابح - كما حدث لهم من قبل فى عام ١١٦٠ - ١١٦١ م ، فقد فر معظمهم معتصماً بالمناطق الجبلية فى وسط الجزيرة وغربيها، حيث احتلوا عدداً من المعاقل المنيعة ، وانضم إليهم فيها عبيد الأرض المسلمون الكادحون فى إقطاعيات نبلاء النورمان. وقدر عدد هؤلاء المسلمين الثائرين فى غرب الجزيرة بنحو مائة ألف، بما فيهم النساء ، «وقد كانت هذه الثورة وقمعها بداية النهاية للوجود الإسلامى فى جزيرة صقلية».

وهكذا انتهت فترة التعايش جنباً إلى جنب بين الطائفتين ، ولعل الأخطار الخارجية المحدقة بتانكريد من ناحية الألمان من جهة ، ومن ناحية الموحدين من جهة أخرى زادت من تعسفه و غلوه فى سياسته نحو المسلمين تحوطاً وكسباً للرأى العام النصرانى فى الجزيرة وخارجها.

أصبح وضع المسلمين فى صقلية حرجاً للغاية فى فترة الفوضى التى سادت الجزيرة بعد وفاة وليام الثانى (أى بعد خمس سنوات فقط من مرور ابن جبير بالجزيرة) إذ إن أمنهم كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوجود سلطة مركزية قوية. أما الآن وقد ضعفت سلطة الملك فى أواخر الفترة النورمانية ، فقد أصبح وضع المسلمين صعباً، لأن طبقة النبلاء الإقطاعيين تحالفت مع الكنيسة الكاثوليكية التى رأت فى تنصير المسلمين عملاً دينياً صالحاً.

أما أولئك المسلمون الذين رفضوا التنصر ، فقد لجأوا إلى الهجرة. وكانت هجرة المسلمين من صقلية إلى شمال إفريقية والأندلس والمشرق قد بدأت - فى الحقيقة- منذ أن وطئت أقدامُ النورمان أرضَ الجزيرة إذ نزح أشهر شعراء صقلية ابن حمديس عن مسقط رأسه سرقوسة بعد كفاح ضد المغيرين النورمان سنة ٤٧١هـ / ١٠٨٧م)، واستمرت الهجرة طوال فترة حكم النورمان للجزيرة. ومن الطبيعى أن هذه الهجرة كانت تزداد فى فترات الاضطهاد وعدم الاستقرار كما حدث عام ١١٥٣م ، وأثناء مذابح عام ١١٦٠ - ١١٦١م ، وأصبحت الهجرة على نطاق أوسع بسبب المذابح والثورة عام ١١٨٩ - ١١٩٠م / ٥٨٥- ٥٨٦هـ.

وبعد وفاة "تانكريد" عام ١١٩٤م(٥٩٠هـ) ، خلفه ابنه الصبى وليام الثالث تحت وصاية والدته، وفى هذه الأثناء زحف الإمبراطور الألمانى هنرى السادس جنوباً ، واستولى على مملكة صقلية باسم زوجته كوتستانس ، منهياً بذلك الفصل النورمانى من تاريخ الجزيرة (١١٩٤م).



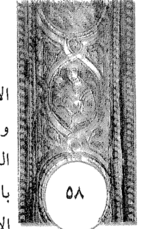
الحياة الاقتصادية فى صقلية الإسلامية

أعطى الجغرافيون المسلمون صورة اقتصادية لصقلية فى العهد الإسلامى. فزار ابن حوقل مدينة بلرم فى صقلية وتحدث عن أسواقها: «وأكثر الأسواق فيما بين مسجد ابن سقلاب، والحارة الجديدة، كسوق الزياتين بأجمعهم ، والدقاقين، والصيارفة، والصيادين، والحدادين، والصياقلة (الذين يصقلون المعادن)، وأسواق القمح، والطرازين، والسماكين، وطائفة من القصابين، وباعة البقل (الحبوب)، وأصحاب الفاكهة، والريحانيين، والجرارين، والخبازين، والجدالين، وطائفة من العطارين والجزارين الحمّالين، والأساكفة، والدباغين،والنجارين، والخشابين خارج المدينة، وببلرم طائفة من القصابين، والجرارين، والأساكفة (الذين يصلحون الأحذية)، وبها للقصابين دون المائتى حانوت لبيع اللحم، والقليل منهم فى المدينة برأس السماط، ويجاورهم القطانون، والحلاجون، والحذاؤن، وبها أكثر من سوق صالح.

وأضاف ابن حوقل أن فى بلرم " سوقا قد أخذ من شرقها إلى غربها ويعرف بالسماط، قد فرش بالحجارة، وانه عمر من أوله إلى آخره بضروب التجارة " . أما الأصطخرى فيقول عن صقلية : «وبصقلية من الخصب والسعة والزرع والمواشى والرقيق أكثر ما يقع منها ما يفضل على سائر ممالك الإسلام المتاخمة للبحر». ويصف المقدسى صقلية فيقول : «وصقلية جزيرة واسعة جليلة ليس للمسلمين جزيرة أجمل ولا أعمر،ولا أكثر مدناً منها».

وتحدثنا بعض المراجع الاقتصادية لصقلية وتذكر: أنه يوجد بمتحف بلرم ودير الكهف مجموعة من الوثائق الإسلامية التى يرجع تاريخها إلى عهد السيادة الإسلامية على الجزيرة، والتى تتضمن جداول المكوس التى تضمنتها المعاهدات التجارية، الإسلامية وهى تدل دلالة واضحة على ما بلغته التجارة فى صقلية من اتساع وازدهار وهى التجارة التى كانت تربط بين صقلية وإفريقية، والمشرق والأندلس».

فالنصوص السابقة تؤكد بأن النشاط الاقتصادى فى صقلية كان مزدهراً، وأن صقلية بحكم موقعها المتميز جغرافيا وتعدد موانئها كانت من أفضل الديار الإسلامية انتعاشا فى مجال الاقتصاد.



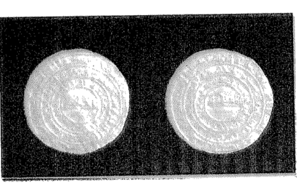
والموارد المالية فى صقلية متعددة المصادر. فمنها الغنائم التى تؤخذ من الأعداء فى أثناء حروبهم مع المسلمين، ومن ذلك أن مال الهدنة المتفق عليه بين والى صقلية، وبين أعدائه قد منع دفعه، حيث ذكر ابن الأثير أنه فى إحدى السنوات امتنع الكفار من إعطاء مال الهدنة، ومنها مال الجزية - وتعرف أيضاً بالجوالى -الذى كان يفرض على أهل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الإسلام، فى مقابل الكف عنهم والحماية لهم، وهى تجب على الرجال الأحرار دون الصبيان والنساء والعبيد والرهبان.

كذلك نجد أن من الموارد المالية الخراج المفروض على أراضى غير المسلمين. وكذلك ما يعرف " بمال البحر " وهو ما يؤخذ على السفن عند رسوها فى موانئ الجزيرة، ويعرف أيضا بالمكوس. ومن الموارد المالية ما أشار إليه ابن حوقل من أن أهل صقلية مطالبون كلهم بالجهاد والانضمام إلى الجيش، إلا من بذل الفدية عن نفسه، أو أقام العذر فى تخلفه مع رابطة السلطان، فكان ما ذكره ابن حوقل ضريبة تدفع إلى بيت مال المسلمين.

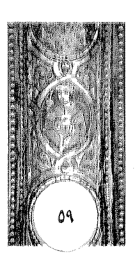
كذلك كان من الأموال التى ترد إلى بيت المال فى صقلية، الزكاة وعشور أراضى المسلمين، وأموال الوقف، ومال من لا وارث له.

يضاف إلى ما سبق ما كان يصل إلى صقلية من الدول الإسلامية التى تقع صقلية تحت سيطرتها. فالأغالبة كانوا يمدون صقلية بالمال، وخاصة وقت الحملات العسكرية لفتح مدينة، أو تأديب طائفة خارجة.

كما كان الفاطميون يرسلون الأموال والطعام إلى صقلية، وذلك إما لمدد عسكرى، أو هبات وهدايا، كما فعل المعز لدين الله الفاطمى عندما أرسل إلى والى صقلية أحمد بن الحسن الكلبى مائة ألف درهم، وخمسين حِمْلا من الصلات تم توزيعها على أطفال الجزيرة.


دينار ذهبى باسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى

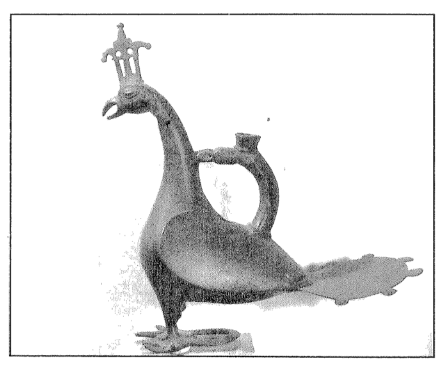
ويجمل ابن حوقل عند حديثه عن صقلية بعد مواردها الاقتصادية فيقول : " إن مال جزيرة صقلية فى وقتنا هذا، وهو أجل أوقاتها ـ وكان ذلك سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧١ م ـ وأكثره، وأغزره بأجمعه من سائر وجوهه، وقوانينه، خمسها، ومستغلاتها، ومال اللطف، والجوالى (الجزية) المرسومة على الجماجم (الرؤوس). ومال البحر، والهدية الواجبة



فى كل سنة على أهل قلورية، وقبالة الصيود، وجميع المرافق وجهاتها وهذه جملة ارتفاعها " فالمستغلات المذكورة فى النص تدل على نوع محدد من الضريبة، أما الخمس فهو ضريبة معينة عدها ابن حوقل من جملة ما تحصله الدولة بصقلية، وكان للخمس ديوان عرف متوليه باسم (صاحب الخمس) وممن تولى إدارته عمران الذى قتل فى بلرم سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م. وخليل الذى ضبط المدينة حين خلت من واليها سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م، ومنهم محمد بن الفضل الرقبانى الموصوف بأنه ينبوع الكرم والإحسان والفضل والامتنان. أما الجوالى فهى الجزية وقد سبق توضيحها. وكذلك سبقت الإشارة إلى مال البحر، أما الهدية الواجبة على أهل قلورية فهى مال الهدنة التى تدفع بشروط معينة، وأحيانا يمتنع النصارى عن دفعها خاصة إذا كان هناك ضعف فى حال المسلمين.

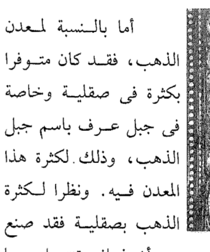
أما القبالى فهى نوع من أنواع طرق جباية الضرائب. فمثلا كانت المصايد تعرض على متقبلين (أشبه بنظام الالتزام) بمبالغ معينة. وقد يكون المتقبل هو المباشر للعمل، أو ينتدب له من يريد. وكان يقصد بكلمة المرافق الضريبية التى تحصل على المراعى والمنتجات المحلية.

أما بالنسبة للصناعة فى صقلية : فقد ساعدت وفرة المواد الخام بصقلية على الإنتاج الصناعى بها، سواء كانت صناعات تعدينية، أو زراعية، أو حيوانية، فلقد كانت مناجم الجزيرة غنية بالمعادن. من ذهب، وفضة، وحديد ورصاص ونشادر وملح وكبريت. وقد ذكر ياقوت أن المعادن بها فى كل مكان وخاصة الذهب، وأنها تصدر منها إلى الأندلس. كما اشتهرت صقلية بوفرة الحديد قرب موضع يقال له «بلهرا» ويعرف «بعين الحديد».

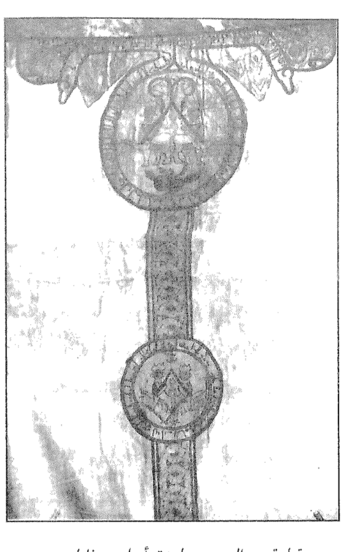


إبريق برونزى صنع صقلية- أسلوب الفاطميين- القرن ١٢م





أما بالنسبة لمعدن الذهب، فقد كان متوفرا بكثرة فى صقلية وخاصة فى جبل عرف باسم جبل الذهب، وذلك لكثرة هذا المعدن فيه. ونظرا لكثرة الذهب بصقلية فقد صنع منه أخفاف تنتعل بها النساء. كما ذكر ابن جبير: " أنه كان لوفرة معدنى الذهب والفضة أثره فى ظهور منسوجات صقلية مطرزة بالذهب والفضة على درجة عالية من الإتقان، حتى أن أوروبا أخذت هذا الفن عن المسلمين فى صقلية " .



قطعة من النسيج مطرزة بأسلوب فاطمى

وكان لإتقان المنسوجات الصقلية المطرزة بالذهب والفضة أثره فى شهرتها العالمية فى ذلك الوقت فصدرت إلى كثير من البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، فمن ذلك نجد أنها متوفرة بكثرة فى مصر وبخاصة فى بيوت الأمراء والأميرات.

وعن ذلك يقول محمد كرد على : «إن أهل صقلية علموا أهل أوروبا صنع الحرير، أنه فى مدينة نورمبرج بألمانيا رداء من حرير كان لملوك صقلية، وفيه كتابات بحروف كوفية مما يدعو إلى الاعتقاد بان صناعة صبغ الثياب انتشرت فى أوربا من صقلية».

أما فيما يتعلق بصناعة السفن، فقد اهتم بها المسلمون اهتماما كبيرا، وذلك لكثرة الاحتياج إليها باعتبارها السلاح الأول لهم سواء فى حياتهم الاقتصادية، أو فى مجال الحروب. وقد وجد بصقلية أكثر من دار لصناعة السفن. وذلك نظرا لتوفر الأخشاب بها وخاصة فى الجبل المسمى بجبل النار.

واشتهرت صقلية أيضا بالنقش على الأخشاب، وذلك لتوفر هذه المادة بصقلية، وتوفر النقاشون المهرة والذين وصلت شهرتهم إلى كثير من البلاد الإسلامية والأوروبية.



نقوش من الحياة على العاج بأسلوب فاطمى صنعت فى مصر أو (صقلية) وقد تشابهت منتجات البلدين نظرا لسيطرة الفاطميين عليها

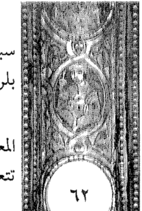
كما كان الحديد ينتقل من صقلية إلى الهند فى بعض الأحيان، ويصنع منه آلات حديدية عالية الجودة وغالية الأثمان.

ومن الصناعات التى نالت شهرة عالية فى صقلية صناعة الورق، وصناعة حبال السفن، وصناعة الحصير التى تعتمد على توافر نبات البردى فى صقلية، وفى ذلك يقول ابن حوقل : «وفى خلال أراضيها بقاع، قد غلب عليها البربر وهو البردى الذى يصنع منه الطوامير. ولا أعلم لما بمصر من هذا البربر نظيرا له على وجه الأرض، إلا ما بصقلية منه، وأكثره يفتل حبالا لمراسى المراكب، وأقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس».

ومن المعادن التى استخرجت وعُدّنت فى صقلية، معدن الكبريت الأصفر، الذى لا يوجد بموضع مثله، وله قطاعون وعمال عالمون بتناول ذلك. وقد سقطت شعورهم وتصلبت أظافرهم من شدة حره ويبسه، ويذكر أنهم يجدونه فى بعض الأزمنة سائلا مائعا فيحفرون له فى الأرض أماكن فيجتمع فيها ويجدونه فى أزمنة أخرى متحجرا حامضا ؛ فيقطعونه بالمعاول. كما كان يستخرج من صقلية زيت النفط من ثلاثة آبار عند قلعة ميناو من إقليم سرقوسة، وذلك فى وقت معلوم من السنة خلال أشهر فبراير، ومارس وإبريل.

هذا بالإضافة إلى المهن والحرف التى ذكرها ابن حوقل وهى كالتالى : طائفة من الزياتين، والدقاقين، والصيارفة، والصيادنه، والحدادين، والصياقلة، وطائفة تعمل فى بيع القمح، ومنهم أيضاً الطرازين، والسماكين، والأبزاريين، والقصابين، وباعة النبق، وأصحاب الفاكهة، والريحانيين، والجرارين، والخبازين، والجدالين، وطائفة من العطارين والجزارين، والآساكفة، والدباغين، والنجارين، والخشابين، والقطامين، والحلاجين، والحذائين.

أما فيما يتعلق بالنشاط التجارى فى صقلية، فقد ساعد موقعها الإستراتيجى وكثرة موانئها على تقدمها فى مجال التجارة. فقد كان موقعها فى وسط الدول المعروفة آنذاك. يمثل حلقة وصل بين شمال أفريقية من جهة، وبين إيطاليا وغرب أوروبا من جهة أخرى. وقد انتعشت التجارة فى صقلية أيام حكم المسلمين لها بعد أن كانت صفرا.



كما كان لكثـرة الأسواق بصقلية أثره المباشر فى نمو التجارة فـيها، وقد سبق أن ذكرنا ما أورده ابن حوقل عن أسواق مـدينة واحدة بصقلية وهى مدينة بلرم. كما ذكر الإدريسى أن مدينة سرقوسة كانت تشتهر بأسواقها المنظمة.

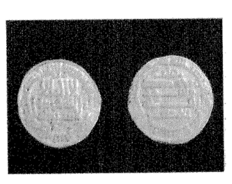
أما فيما يتعلق بالعملات النقدية الـتى كانت مستعملة فى صقلية ؛ فمن المعروف أن صـقلية خضـعت للأغالبة، ثم الـفاطميـين وكانت كمـا الدولتين تتعاملان بالدرهم والدينار.

أما أول ذكر لسك عملة إسلاميـة فى صقلية فكانت بعد دخول المسلمين إليـها بزمن قليل. وكـان ذلك فى سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م عندمـا كان المسلمـون محاصرين لسرقوسة ، حيث وجد نوع من العملة الفضية الرقيقة، كانت على شكل دائرى من فئة الدرهم. وكتب على وجه من وجوههـا اسم الأغالبة، ثم اسم زيادة الله بن إبراهيم وعلى الوجه الآخر اسم محمد بن أبى الجوارى، وهو قائد المسلمين فى صقلية بعد وفاة أسد بن الفرات. وكان مكتوب عليه أيضـا لفظ الجلالة (بسم الله) وتاريخ ومكان الإصدار حيث كـتب (نقش فى صقلية سنة ٢١٤هـ) وهو محفوظ بمتحف العملات فى باريس.

كما توالى ضرب العملات فى صقليـة. ففى سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م ضرب فى صقلية عملة من فئة نصف درهم. وفى سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م وجدت عملة مـضروبة فى صقلية ومكتوب على أحد وجهيها اسم بلرم ، مما يعنى أن مدينة بلرم كانت مركز إصدار العملات الصقلية المحلية.

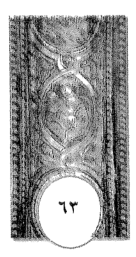
أما فـئة الدينار الذهبى الكـامل، فليست هناك إشـارات تدل على أنه ضرب فى صـقلية، ولكن ضـرب ربع دينار فى صـقلية علـى عهـد الـفـاطمـيـين فى حـدود سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م. وعن الرباعى يذكـر مارتينو أن الإيطاليـين قلدوه فقال : «يوجـد فى مملكة صقليـة ونابولى طوال ثمانية قـرون نقد يقال له بالإيطالية (الترينو) أو (ترى) ، وإنمـا هو الرباعى الذى كان يضرب فى صقلية فى عهد الأغـالبة والفاطميين، وقد قلده النورمان فى بلرمو، وسالرنو، تاركـين فيه كتاباته العربية، ثم قلده فرديريك الثانى وخلفاؤه».

وإذا كانت قد ضربت العملة فى صقلية فإن ذلك لا يعنى عدم تداول عملة الدول التى كانت تتبـعها حكومة صقلية داخل صقلية نفسـها سواء فى عهد الأغالبة، أو الفاطمـيين. فقد جاء ذكر الدينار فى كثـير من المبادلات التجارية بـين سكان صقلية، وكذلك الدرهم.



دينار ذهبى باسم الأغلب بن الأغلب ضرب تونس -عصر الأغالبة

كمـا ورد ذكر الدينار فى الهـبات والعطايا التى يمنحـها حكام صـقلية، لمن يريدون كـما فـعل إبراهيم بن عبـد الله بن الأغلب والى صقليـة ٢٢١هـ - ٢٣٦هـ/ ٨٣٦ - ٨٥١م عندما أمر بكيس دنانير وأعطاه لامرأة أطعمته فرخين من الطيور.



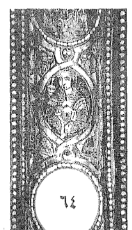
الحياة الاجتماعية فى صقلية الإسلامية

كانت صقلية قبل الفتح الإسلامى خاضعة للدولة البيزنطية، وذلك منذ عهد جستنيان(٥٢٧- ٥٦٥م)، وعلى يد قائده بلزاريوس فى سنة ٥٣٥م، وكان فيها مجتمعات متباينة من السكان، فكان فيها اليونانيون والرومان، وبقايا من القوط الشرقيين، يضاف إلى ذلك دخول الفاتحين إليها من المسلمين سواءً كانوا عرباً أم بربراً.

كما كانت صقلية منفى للمذنبين، والمجرمين، والعساكر المتمردين، وكانت تقطنها جماعات قليلة العدد من اليهود، الذين تميزوا بانكماشهم على أنفسهم، وكره الأجناس الأخرى لهم. ولكنهم لم يكونوا كثيرى العدد. إضافة إلى ما سبق كان بصقلية مجموعة من العبيد، الذين هربوا من شدة الضرائب عليهم، وعملوا فى مزارع الأغنياء، ودفعوا حرياتهم ثمناً لذلك.



شارع قديم له سلالم على غرار المدن الفاطمية العربية- صقلية



وكان للفتوحات الإسلامية أثر فى الهجرة إلى صقلية. فتذكر المصادر أن حسان بن النعمان الغسانى، عندما أغزاه عبد الملك بن مروان فى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م، ووصل إلى إفريقية، قصد قرطاجنة، وقاتل أهلها، فهربوا فى البحر إلى الأندلس وصقلية.

والمجتمع الصقلى بصفة عامة، لم يكن مجتمعاً سعيداً مكفول الحرية فى عهد الدولة البيزنطية. أما بالنسبة للغة السائدة قبل الفتح الإسلامى فكانت اللغة اللاتينية ، أما لغة الكتابة فكانت اليونانية. ومن الناحية الدينية كان كنيسة صقلية مرتبطة ببطريركية القسطنطينية. وجملة القول فإن صقلية البيزنطية، قد فقدت شخصيتها، ومقومات الحياة العمرانية فيها، وبلغت من الانحطاط درجة ليس ثمة ما هو أدنى منها أثناء الحكم البيزنطى.

وكنتيجة طبيعية للحال السابقة، فإن السكان فى جزيرة صقلية، رحبوا بالفاتحين المسلمين. حيث رأوا أن الإسلام هو دين العدل والتسامح، الذى يكفل للأفراد حرياتهم، وللمجتمعات تقدمها. قال ميخائيل إمارى: "كانت صقلية فقد أصبحت فى داخلها وخارجها بيزنطية، وكانت مريضة بذلك الداء الوبيل الذى أصاب الإمبراطورية البيزنطية المنحلة؛ ولذلك فإننا إذا تأملنا حالتها السيئة، لا يؤسفنا ذلك الفتح الإسلامى الذى هزها هزاً وجددها تجديداً. وقال إمبرتو : "ونحن نشارك إمارى فى رأيه الثاقب" .

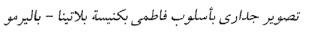
وللحديث عن الحياة الاجتماعية فى صقلية، يجب أن نتحدث عن عناصر المجتمع الصقلى بإيجاز إذ إن المجال لا يسمح لدراسة ما يتعلق بكل مظاهر الحياة الاجتماعية فيها، فذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة. واقتصارنا فى الحديث عن عناصر المجتمع الصقلى، لا يعنى أن الجوانب الأخرى فى حياة صقلية الاجتماعية غير مهمة. ولكن لأن عناصر السكان وطبقاته المختلفة تمثل حجر الزاوية فى بناء أى مجتمع، وبالتالى بناء الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية لذلك المجتمع. فاستقرار المجتمع، وتوافق سكانه بفئاتهم المختلفة، تمثل البداية للتقدم فى شتى المجالات، والمجتمع الذى أحدثته عنه هو الركيزة الأساسية فى بناء الحياة العلمية.

لذلك فإن عناصر السكان فى المجتمع الصقلى شملت ما يلى:

١- العرب:

وكانوا يمثلون الأغلبية فى الجيش الفاتح بقيادة أسد بن الفرات (قاضى قضاة القيروان) فى سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م. يضاف إلى ذلك كثرة الهجرات العربية إلى صقلية، بسبب الجوع والغلاء.




تصوير جدارى بأسلوب فاطمى بكنيسة بلاتينا - باليرمو

كما هاجر كثير من العرب إلى صقلية بعد إعلان المعز بن باديس الولاء للعباسيين فى سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م، فانتقم منه الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) بأن حرض العرب على الجواز إلى الغرب، فتوجه منهم خلق كثير، وهاجموا القيروان، وخربوها، فهاجر كثير من أهلها إلى صقلية. كما قد تكون الهجرات بسبب الخلافات المذهبية، وهو ما نجده واضحاً فى هجرة عدد من الفقهاء الذين يميلون إلى المذهب العبيدى (الفاطمى الشيعى) من إفريقية إلى صقلية، فى عهد سيطرة الفاطميين عليها.

ونظراً لأن العرب كانوا يمثلون الأغلبية، نجد أنهم كانوا ينتمون إلى عدة قبائل عربية، فمنهم الأغالبة الذين حكموا إفريقية، وفتحوا صقلية، وتولوا إمارتها. والعرب فى مجموعهم ينقسمون إلى عرب عدنانية، وعرب قحطانية، وكان العرب القحطانية يمثلون الأغلبية فى صقلية.

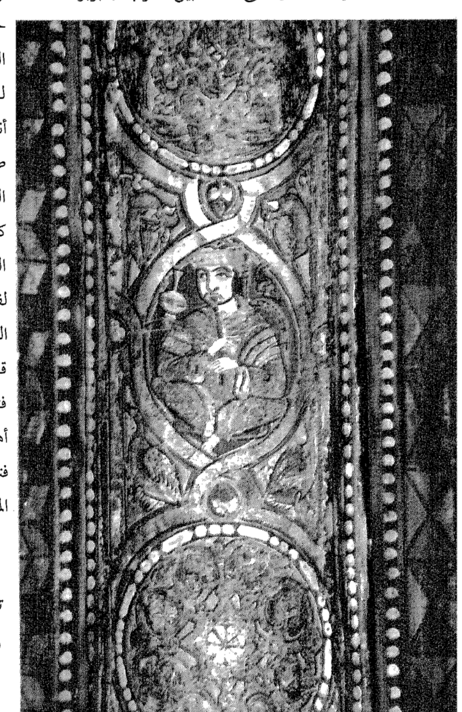
فمن العرب العدنانية ما نسبته إلى التميمى كأبى عبد الله الإمام المازرى، ومنهم من يلقب بالقرشى كأبى العرب مصعب المولود فى صقلية، ومنهم من يلقب بالتغلبى كطاهر بن محمد الصقلى، ومنهم ممن يلقب بالكنانى كمحمد بن أبى الفرج الصقلى، ومنهم من يلقب بالفهرى.

ومن العرب القحطانية فى صقلية نجد أسرة آل الكلبى، التى حكمت صقلية, وممن يعود فى نسبه إلى العرب القحطانية من كان لقبه الأزدى كابن حمديس الشاعر الصقلى المشهور ومنهم الأنصارى، والغصانى كأبى لقمان ابن يوسف والمعافرى واللخمى، والكندى، والزبيدى.

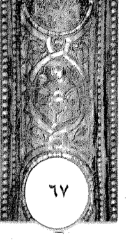
وكان العرب فى صقلية يتركزون فى مدن معينة. فقد كان عددهم كبيرا فى ولاية مازرة، ومتوسطى العدد فى ولاية نوطس وقليلى العدد فى ولاية دمنش، ويدل على ذلك وجود قبور عربية وآثار وشواهد على تلك القبور، مكتوب عليها بالعربية. كما أن بعض الأماكن فى صقلية عربية الصبغة.

وعلى الرغم من كثـرة القبائل التى ينتـسب إليها عربُ صـقلية، إلا أن ذلك كان عاملاً مـهما فى عدم وجود نزاعات وخلافـات بينهم. فقد كان هذا التنوع بين القبائل العربية سببـاً من أسباب التوافق بينهم. وإنما الخلافات كانت تقع أحيـانا بين العرب من جـهة وبين البـربـر مـن جـهـة أخـرى ؛ ومن تلك الفتن مـا حـدث بين العرب والـبربر فى سنـة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م أثناء ولاية بنى الأغلب على صقليـة. مما دفع الوالى الأغلبى إبراهيم بن أحمد بن مـحمد بن الأغلب إلى أن يبعث كتـبه إلى أهل صقلية يدعوهم فيهـا للرجوع إلى الطاعة ويؤمنهم أجمعين.

وتلك الفتن التى قامت بين العرب والبربر استغلت من قبـل الفاطميين بعد خضوع الجزيرة لحكمهـم. ذلك أنهم كانوا يحـرضون البربر على العرب الذين لم يستـجيبوا للولاة الفاطميين فى الجزيرة, ومما يذكر أنه إذا كـان العرب الـذين قدمـوا إلى صقليـة، وفدوا إليها من كـافة أرجاء الدولة الإسلامية؛ إلا أن عرب أفريقية كانوا هم الأكثرعددا ، بحكم الارتباط السياسى بين إفريقـية وصقلية؛ ونظراً لقـرب صقلـية من إفـريقـية. يقـول القزوينى عن جزيرة صـقلية: «وكانت قليلة العـمـارة خاملة الذكـر، إلى أن فتح المسـلمون بلاد إفريقـيه، فـهرب أهل إفريقـية إليها، وعمَـروها، حتى فتـحت فى أيام بنى الأغلب فى ولاية المأمون».



تصوير سقف كنيسة بلاتينا فى باليرمو- رجل يشرب النرجيلة- أسلوب فاطمى



٢- البربر:

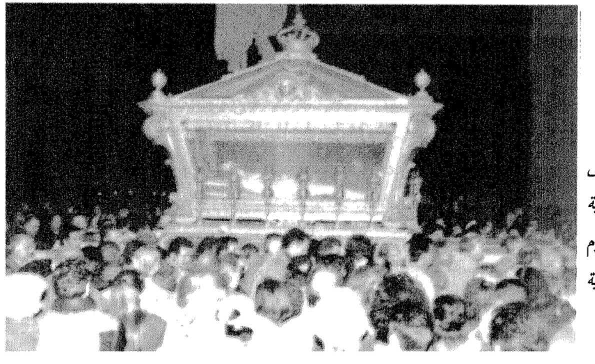
كان للبربر دور كبير فى تاريخ صقلية، وذلك بدعمهم للحكم الفاطمى بها وخاصة قبيلة كتامة البربرية، التى ينتسب إليها "الحسن بن محمد بن أبى خنزير" الذى بعثه الخليفة الفاطمى إلى صقلية ليدعم نفوذ الفاطميين بها، وكذلك نجد أن أبا سعيد الضيف أرسل على رأس جيش إلى صقلية فى سنة ٣٠٤هـ/ ١٠١٢م، وضم ذلك الجيش عدداً كبيراً من رجال كتامة البربرية.

ومن القبائل البربرية التى سكن بعض أفرادها صقلية ؛ من ينتسب إلى اللواتى والقرقودى، والمكلاتى. وكذلك الزنانى. كما كان من تلك القبائل أيضاً التى ينتسب بعض من سكن صقلية من البربر إليها، قبيلة أندره، وقبيلة مزيزه ومليله.

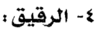
وقد عاش البربر فى صقلية مع العرب، وتمركزوا فى مناطق خاصة بهم تحمل مسميات بربرية. وكانت قبيلة كتامة البربرية هى أهم قبائل البربر، وكانت ذات حظوة كبيرة لدى الفاطميين فى صقلية، حيث استخدمت لقطع ثورات العرب، وتحقيق أهداف سياسة الفاطميين فى صقلية.

٣- الفرس:

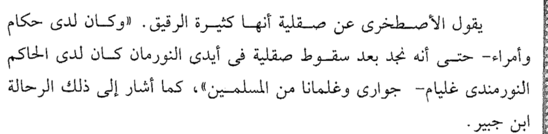
يعود نسب فاتح صقلية القاضى أسد بن الفرات إلى أصل فارسى، فهو من أهل نيسابور. ولذلك فإن الفتح الإسلامى لجزيرة صقلية، جلب إليها عدداً كبيراً من الفرس. كما أن بنى الطبرى والذين هم من أعيان مدينة بلرم، تشير نسبتهم إلى أنهم من طبرستان، وقامت فى صقلية ثورة آل الطبرى، الذين هم من أعيان الجماعة، وقد قضى على ثورتهم أول أمراء الأسرة الكلبية على صقلية.



احتفال مسيحى أرثوذكس فى صقلية حيث مازالت تقوم الاحتفالات الدينية



٤- الرقيق :



يقول الأصطخرى عن صقلية أنها كثيرة الرقيق. «وكان لدى حكام وأمراء- حتى أنه نجد بعد سقوط صقلية فى أيدى النورمان كان لدى الحاكم النورمندى غليام- جوارى وغلمانا من المسلمين»، كما أشار إلى ذلك الرحالة ابن جبير.

ونجد أن من الموالى فى صقلية من نال مركزاً رفيعاً «كعيش مولى الحسن بن على الكلبى»، والذى تولى إمارة صقلية بعد مولاه وكذلك جوهر الصقلى الكاتب، والذى أصبح قائداً لجيوش المعز لدين الله الفاطمى، وفتح مصر للفاطميين سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م وبنى مدينة القاهرة.

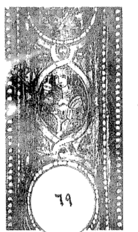
ولقد كثر عدد العبيد فى صقلية، حتى أصبحوا يمثلون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الصقلى، وزاد عددهم نتيجة للأسر والسبى والشراء ؛ وقد هيأ لهم الفتح الإسلامى للجزيرة حرفة جديدة تدر عليهم دخلاً معقولاً، إذ دخلوا فى صفوف الجيش، إلا أن الجيش شقِى بهم فيما بعد، حتى أصبحوا عنصراً خطراً قابلاً للثورة. فقد اتحد العبيد مع البربر ضد أمير صقلية جعفر بن يوسف بن عبد الله الكلبى مما اضطره إلى نفى البربر، وقتل العبيد.

وكان يجلب إلى صقلية العبيد الصقالبة. وهم المماليك البيض، الذين كانوا يجلبون وهم صغار السن، ويؤتى بهم من بلاد السلاف على ضفاف نهر الألب عبر ألمانيا وفرنسا. وذلك بواسطة التجار اليهود بشكل خاص، وكان لهم مكان يباعون فيه يعرف بالنخاسة. وفى مدينة بلرم حارة تعرف بحارة الصقالبة. وكان لهؤلاء الفتيان نفوذ عظيم فى عهد الأمراء الكلبيين، والملوك النورمنديين، لأنهم أعوانهم وبطانتهم.

وكان للعبيد نظام فى صقلية، حيث تسجل أسماؤهم فى سجلات ملحقة بشئون الأرض يوضح فيها الإقطاعيات، وعدد الأرقاء فيها، كل ذلك فى ديوان عرف باسم ديوان «التحقيق المعمور». وله رئيس وكتاب.

٥- وفى صقلية من السكان المسلمين من كان ينتسب إلى المكان، أو المهنة:

حيث نجد أن هناك من كان ينتسب إلى مدن صقلية، أو مدن فى بلاد إسلامية أخرى، أو ينتسب إلى ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، فمن ذلك مثلانجد : المكى كعمر بن خلف المكى. والمصرى كعلى بن جعفر بن القطاع الصقلى، ثم المصرى. ونجد كذلك القيروانى، والسوسى والشامى والطرابلسى، والمغربى، والقابسى، والغافقى، والحجازى. وغير ذلك.



ومن أهل صقلية، من كان ينتسب إلى الحرفة أو الوظيفة التى يقوم بها، فنجد مثلاً من يطلق عليه الـوزير، والقاضى، والوثاقى والغضائرى، والخراز، والصـباغ، والكتـانى. وهناك من كـان ينتسب إلـى المذهب كأن يقـال المالكى كمحمد بن أبى الفرج المالكى.

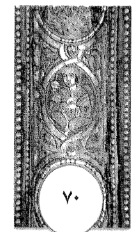
٦- النصارى :

بعد أن دخل المسلمون إلى صقليـة، نجد أن بعض النصارى قد دخل فى الإسلام، وبعـضهم بقى على دينه، وقبل بدفـع الجزية، وهناك بعض المدن تم عقد معاهدات بين أهلها والمسلمين تقضى بعدم الاعتداء من الطرفين، على أن يدفع النصارى مالا عرف بمال الهدنة. وقد ترك المسلمون للنصارى حريتهم الدينية.

٧- اليهود :

كان بصقلية قليل من اليهود قبل الفتح الإسلامى. وبعد الفتح الإسلامى تخلص اليهود من سيطرة القسطنطينية وضرائبها الباهظة. وكانوا يعملون بتجارة الرقيق، كما كان لهم حارة فى مدينة بلرم تعرف بحـارة اليهود، كما كـان اليهود يتكلمون بالعـبرية، إلا أن بعضهم كان يتكـلم العربية أيضا.

وأخيراً نشير إلى وجود جيل نشأ نتيجة للتزاوج بين طوائف سكان صقلية،وهو ماأشار إليه أمير صقلية أحمد بن يوسف الكلبى المعروف بالأكـحل، والذى دعا فيه أهل صقلية إلى الاجتماع ضد أهل إفريقية، فردوا عليه قائلين : «قد صاهـرنا وصرنا شيئا واحد» والتصاهر كان فى الغالب بين المسلمين، إلا أن بعض المسلمين قد تزوج من نصرانيـات، ومثل هذا الزواج قد وقع بصقلية، وكان يعقد على شروط لم يسمح بمثلهـا فى ديار المسلمين، وقد تضايق ابن حوقل من هذا الزواج ومن شروطه فقال على سبـيل الاستهجان : " المشعمدون – أى المشعـوذون – أكثر أهل حصونهم وباديتهم وضـياعـهم، رأيهم التزوج إلى النصارى، عـلى أن ما كان بينهم من ولد ألحـق بأبيه من المشعوذين، ومـا كانت من أنثى فنصرانية مع أمـها" . ويعلق مارتينو على قول ابـن حوقل السابق فيقول: «إذا هذه النصرانية المذكورة عند ابن حوقل إذا تزوجت من مسيحى، ستلد له أولادا، ربع دمائهم عـربى، أو بربرى، وإذا كان من بينهم بنت واقترنـت بمسلم تكررت الحكاية، وهلم جرا، إلى تبادل دماء متـواتر، لا يزال بادى الأثر فى ملامح كثير من الصقليين»، واسـتمر ذلك التزواج بين المسلمين والنصرانيـات حتى بعد سقوط صقلية، فنجـد أنه : «فى زمن النورمان حدث تزاوج بين المسيحيين والمسلمين بصقلية،مما أوجـد جيلا جديدا حمل اسم «بولانى» وامتاز هذا الجيل بأنه كان يعرف لغات مختلفة مثل العربية، والفرنسية، والإيطالية.



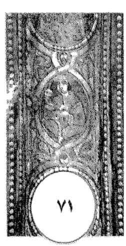
الحياة الدينية فى صقلية

فيما يتعلق بالمذاهب التى سادت فى صقلية بعد الفتح الإسلامى، فإنه لابد لمعرفة ذلك من الإشارة إلى الفقهاء الذين دخلوا صقلية، وميولهم المذهبية، حتى نصل إلى ما كان عليه الحال بالنسبة للمذاهب، مع الأخذ بعين الاعتبار أن دراسة أولئك الفقهاء العملية تكون منصبة فى الغالب على المذهب الذى يتبعونه, ومن أولئك الفقهاء الذين دخلوا صقلية القائد الفاتح أسد بن الفرات، وهو يعد من أعلام المذهب المالكى، فقد قدم إلى القيروان فى غرة سنة ١٤٤هـ /٦١٧م، ثم ارتحل إلى تونس وبها التقى بالفقيه على بن زياد التونسى، وسمع منه موطأ الإمام مالك، كما أنه رحل إلى المشرق والتقى بالإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وتعلم على يديه، وسمع منه كتابه المشهور بالموطأ. ولم يقتصر أسد بن الفرات على معرفة المذهب المالكى، بل تفقه فى العراق على أصحاب الإمام أبى حنيفة كأبى يوسف القاضى، وأسد بن عمرو ومحمد بن الحسن.

كما ألف أسد بن الفرات كتابه «الأسدية» بعد أن التقى فى مصر بعبد الرحمن بن القاسم، يسأله فى كل يوم مسألة، ويجيبه ابن القاسم حتى دون ستين كتابا عرفت" بالأسدية" حيث قدم بها إلى القيروان، وسمعها منه الناس إلى جانب «الموطأ».

وبناء على ذلك فقد كان فاتح صقلية عالما بالمذهبين المالكى، والحنفى، إلا أن المذهب المالكى كان هو الغالب عليه، وذلك لاعتبارات منها، أنه تلقى عن إمام المذهب مباشرة، كذلك كتبا كتابه «الأسدية» فى المذهب المالكى، الذى هو عبارة عن أجوبة تلقاها من أحد أهم أعلام المذهب المالكى وصاحب المدونة فى الفقه عبد الرحمن بن القاسم.

وعندما اتجه القائد الفاتح أسد بن الفرات إلى صقلية، صحب معه عند خروجه عددا كبيرا من العلماء والعباد، والمشاهير، وأعيان الناس، وخطب فيهم خطبة مشهورة، ركز فيها على أهمية طلب العلم وتدوينه والصبر عليه، والمثابرة، فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والله يا معشر الناس ما ولى لى أب ولا أحد قط ولاية، ولا أرى أحدا سيلقى مثل هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام فأجهدوا أنفسكم فى طلب العلم، وتدوينه، وثابروا عليه، واصبروا على شدته فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة».



والمذاهب الفقهية دخلت إلى صقلية بدخول الفقيه القائد أسد بن الفرات. فقد تعاطف الصقليون مع المذهب المالكى، وزاد ذلك التعاطف والتأثير بدخول عدد كبير من أتباع سحنون إلى صقلية، حاملين معهم لواء المذهب المالكى، ومن هؤلاء عبد الله بن حمدون، أو حمدويه الكلبى، وهو ممن سمع من سحنون، ودخل صقلية، فكان من أوائل فقهائها، وظل بها إلى أن توفى سنة ٣٧٠هـ/ ٨٨٣م.

ومنهم محمد بن نصر بن حضرم، الذى وصف بأنه من فقهاء القيروان، وأنه كان كثير الاجتهاد، وذو جدل وحجة، وكان سحنون يجله، ويصله، وبقى فى صقلية إلى أن توفى.

ومن فقهاء المالكية الذين دخلوا صقلية أيضا عبد الله بن سهل المتوفى سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م، فقد كان عالما بالمذهب المالكى، حيث سمع من سحنون، ومن غيره من أهل القيروان، : كما أنه سمع من أسد بن الفرات، وتولى قضاء صقلية بعد أن تولى قضاء طليطلة.

كما تولى أبو الربيع سليمان بن سالم القطان- والذى يعرف بابن الكحالة المتوفى سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م - قضاء صقلية، وهو من أصحاب سحنون، وكان ابن الكحالة ممن وفد على المدينة وحدث عن محمد بن مالك بن أنس. كما كان ابن الكحالة كثير الكتب والتآليف، وله تأليف على قضاء صقلية فى سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م، والتى ظل قاضيا عليها إلى أن توفى، وكان قبل ذلك قاضيا على باجه، ومتوليا لمظالم القيروان.

وعن الدور الذى قام به ابن الكحالة فى صقلية قال الشيروان : «وعنه انتشر مذهب مالك بها» كما نشر بصقلية علما كثيرا وأصبح كتابه «السليمانية» مجالا للاستشهاد به عند فقهاء صقلية وخاصة عند فقيه صقلية عبد الحق الصقلى.

وممن تولى قضاء صقلية من الفقهاء المالكية دعامة بن محمد الفقيه المتوفى سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م، وهو من أصحاب سحنون. وممن أخذ عنه.

والفقيه المالكى محمد بن محمد بن خالد القيسى الذى عينه الأمير الأغلبى زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٠-٢٩٦هـ/ ٩٠٣ - ٩٠٨م) قاضيا عليها، واستمر لمدة عشرين سنة. وهو ممن سمع من محمد بن سحنون، كما سبق وان تولى مظالم القيروان. وأبو عمرو ميمون بن عمرو بن المغلوب الإفريقى المتوفى سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) وقيل سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م ، وهو من تلامذة سحنون وآخر من روى عنه بالمغرب وعن أبى مصعب الزهرى، وقد وصف بأنه كان رجلا، صالحا، زاهدا، وبلغ به زهده أنه عندما خرج لقضاء صقلية، حمل معه كتبه، وخادمته، ولم ينزل فى دار القضاء.



وقد استقر أحد فقهاء المالكية بصقلية وهو أبو سعيد لقمان بن يوسف الغساني المتوفى سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م وقبل ٣١٩هـ/ ٩٣١م، قام بتدريس المدونة فى الفقه المالكى لمدة أربع عشرة سنة، وقد وصف بأنه كان حافظا لمذهب مالك حسن القريحة فيه، وأنه كان عالما باثنى عشر صنفا من العلوم.

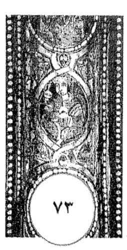
كذلك كان من فقهاء المذهب المالكى الذين تولوا القضاء بصقلية، وكان لهم دور فى نشر المذهب المالكى بها محمد بن إبراهيم بن أبى صبيح المتوفى بسوسة سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وهو فقيه درس المذهب المالكى على أصحاب سحنون، ووصف بأنه كان رجلا فاضلا زاهدا.

وكان لاستقرار أحد شيوخ المالكية وفقهائها بصقلية، دوره البارز فى نشر المذهب المالكى بها وتأليفه لكتبه فيها، وهو كتب أصبح لها مكانه فى صقلية، حيث شرحت واختصرت، وهذبت وألف على منوالها، وعلق عليها، وذلك هو أبو سعيد خلق بن أبى القاسم الأزدى القيروانى المالكى، المعروف بالبرادعى، المتوفى بصقلية بعد سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م.

ويذكر الزبيدى عن تلك المناظرات التى جرت بين ابن الحداد وفقهاء الشيعة، أنها جمعت فى كتاب اسمه «المجالس» حيث أملاها ابن الحداد على أصحابه. فقال: «وكان لسعيد بن محمد بالقيروان فى أول دخول الشيعة مقامات محمودة، ناضل فيها عن الدين وذب عن السنن، حتى مثله أهل القيروان فى حال تلك بأحمد بن حنبل أيام المحنة».

وقد استمر العداء بين الفقهاء المالكية والفاطمية إلى أن أعلن «المعز بن باديس» حمل الناس على الالتزام بمذهب الإمام مالك، وحسم مادة الخلاف فى المذهب، كما سبق وأن أشرت إلى ذلك. والصراع بين أهل السنة والرافضة مستمر سواء فى المشرق الإسلامى أو فى غربه، إلا أن ابن تغرى بردى يذكر أنه فى سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥٠م حصل صلح بين أهل السنة والرافضة، ثم يذكر أنه فى سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م عادت الفتنة بين أهل السنة والرافضة فى المشرق الإسلامى. هذا بالنسبة للصراع فى الشرق، وأما فى المغرب، فلم تخل سنة من السنوات السابقة لهذا التاريخ من صراع بين السنة والشيعة.

وتزداد مكانه البرادعى العلمية إذا علمنا أنه من كبار أصحاب من تسميه المصادر بـ«مالك الصغير» ابن أبى زيد، وكذلك من أصحاب أبى الحسن القابسى، ويعتبر ابن أبى زيد وأبو الحسن القابسى من حفاظ المذهب المالكى المؤلفين فيه، أما عن استقرار البرادعى بصقلية، فقد ذكرت المصادر أنه أخرج من القيروان لأنه كان يميل إلى بنى عبيد كما أنه ألف كتابا فى نسب بنى عبيد، وبذلك وصلت إليه هداياهم تكريما له. وفى صقلية اشتهر البرادعى، وحصلت له صحبة عند أمرائها، واشتهرت كتبه بها.



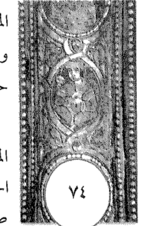
وقد كانت صقلية وقتذاك فاطمية التبعية، وكان الولاة الفاطميون فى صقلية يؤوون الفقهاء الذى يميلون إلى بنى عبيد، أو الذين لا يقفون منهم موقف المتشددين، وحسن استقبالهم للبرادعى دليل واضح على ترحيب البلاط الصقلى بمن كان يسالم المذهب الشيعى والسياسة الفاطمية، وقد ألف البرادعى كتبه فى صقلية برعاية أمرائها، ومن كتبه تلك كتاب «الشرح والتمامات» وكتاب «اختصار الواضحة» لمؤلفه عبد الملك بن حبيب السلمى. وكتاب «تمهيد مسائل المدونة».

ومن فقهاء المالكية الذين وفدوا على صقلية، وألفوا فيها بعض كتبهم يحى بن عمر بن يوسف الأندلسى. المتوفى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠١م، وقد ألف كتابا فى المذهب المالكى بصقلية، وكان كتابه هذا منتشرا فى صقلية، كانتشاره فى أفريقيا.

وبعد هذا الاستعراض لبعض الفقهاء الذين وفدوا على جزيرة صقلية سواء على أيام الأغالبة أو الفاطميين - يمكن تتبع التطور المذهبى فى جزيرة صقلية، فنقول : إن صقلية دخلت فى مذهب أهل السنة والجماعة ممثلا فى المذهب المالكى، وذلك لعدة أسباب منها أن أغلب الفقهاء الذى دخلوا صقلية مع الجيش الفاتح وبعده وطيلة فترة الأغالبة، بل وحتى زمن الفاطميين، كانوا ممن ينتمون إلى المذهب المالكى، ما يتضح من خلال متابعة خروج الفقهاء والقضاة إلى صقلية، وانتشار مؤلفاتهم فيها، وفى ذلك يقول القاضى عياض : «إن مذهب مالك قد غلب على الحجاز، والبصرة ومصر وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس وصقلية، والمغرب الأقصى إلى بلاد السودان إلى وقتنا هذا» وإذا علمنا أن القاضى عياض قد توفى فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، فمعنى ذلك أن المذهب الذى كانت له السيادة فى جزيرة صقلية كان هو المذهب المالكى، وأن ذلك استمر فترة الوجود الإسلامى فى جزيرة صقلية فى عصر اللأغالبة، والفاطميين، بل وحتى بين من بقى من المسلمين فى صقلية فى العصر النورماندى.

إلا أن نشاط المذهب المالكى انحسر فترة من الزمن، ولكنه لم يختلف وخاصة فى عصر سيادة الفاطميين على صقلية. ويذكر- المقدسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى - «أن أغلب أهل صقلية حنفيون» وهذا التاريخ الذى عاش فيه المقدسى، كان فترة السيطرة الفاطمية على صقلية، التى بدأت بنهاية القرن الثالث الهجرى.

وقبل أن نحاول التوفيق بين قولى القاضى عياض والمقدسى فإننا نشير إلى أن إفريقية قامت بالدور الرئيسى فى التأثير المذهبى على صقلية. وقد اتضح سابقا أن الأغالبة كانوا يميلون إلى مذهب الأحناف، ثم أخذ جماعة ممن درسوا مذهب الإمام مالك يحاولون نشره، ولكن هذا



المذهب، لم يستطع أن يبسط نفوذه على إفريقية إلا أيام أسد بن الفرات، وسحنون اللذان استمدا ثقافتها الفقهية من المشرق، على الرغم من محاولة حكام الدولة الأغلبية وقف نشاطه، وزيادة ظهور المذهب الحنفى.

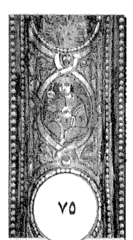
ويعكس وجود المذهب الحنفى فى صقلية - كما أشار المقدسى - انحسار المذهب المالكى فى عهد الفاطميين. وبروز فئة قليلة من فقهاء وأتباع المذهب الحنفى، فيقول إحسان عباس : إن مذهب الإمام مالك أخذ فى الانتشار فى صقلية قبل انتهاء القرن الثالث الهجرى، وإذا عرفنا أن المقدسى قد كتب كتابه بعد قيام الدعوة الفاطمية، قدرنا أن يكون المذهب المالكى، قد انهزم أمام هذه الدعوة، كما انهزم فى إفريقية، ولكن لم يقبل الناس على مذهب أبى حنيفة ، ولا يأخذون بالمذهب الفاطمى، وربما كان فى صقليه اقلية من أتباع أبى حنيفة، فلما هزم المذهب المالكى، وربما لجأ المالكيون إلى مذهب أبى حنيفة فرارا من ترك السنة، لأن بنى عبيد كانوا متسامحين مع الأحناف متشددين مع المالكية. فهذا النص السابق يفسر لنا الخلاف بين قولى القاضى عياض، والمقدسى.

ولكن الواضح من الأحداث التاريخية، ومن خلال تراجم أعلام صقلية، أنهم كانوا يعتمدون مذهب الإمام مالك، ويؤيد ذلك أن أسد بن الفرات، فاتح صقلية، كانت إجابته على سؤال من سأل أى مذهب يعتمد ؟ فقال : «إن أردت الله والدار الآخرة فعليك بقول مالك». أما فيما يتعلق بالمذهب الشافعى فى صقلية، فلم يكن معروفا، كما هو الحال فى إفريقية.

ثم إن مقاومة الفقهاء وأتباعهم من معتنقى المذاهب السنية، للمذهب الشيعى بعد سيطرة الفاطميين على صقلية، لم تتوقف، حتى انتهى الأمر بصقلية إلى نبذ التشيع من جزيرة صقلية، وقد أكد ابن جبير ذلك عندما زار صقلية فى فتره الحكم النورماندى قائلا: «ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسى».

وبعد سيطرة الفاطميين على صقلية انتهجوا سياسة تجعل ولاتهم على صقلية من أنصار مذهبهم الإسماعيلى.

وقد اعتمد عبيد الله المهدى لنفسه سياسة الاعتماد على الكتاميين، - أنصار المذهب الإسماعيلى- فأرسل الحسن بن أبى خنزير واليا على صقلية (٢٧-٢٩٩هـ/ ٩٠٩-٩١١م) وهو أحد أفراد قبيلة كتامة البربرية، ولكن أهل صقلية، لم يقبلوا بسهولة ذلك التغير المذهبى، فثاروا ضد ولاتهم من قبل الفاطميين، كما أن أهل صقلية عز عليهم أن تقطع الخطبة للخليفة العباسى فى المشرق الإسلامى. ويدعى فيها للخليفة الفاطمى وعندما تولى على بن عمر البلوى إمارة صقلية (٢٩٩-٣٠٠هـ/ ٩١١-٩١٢م) لم يرض به أهل صقلية وثاروا ضده، وعينوا على أنفسهم «أحمد بن قرهب»، الذى أعلن الخروج عن طاعة المهدى وأعلن طاعة الخليفة العباسى المقتدر،



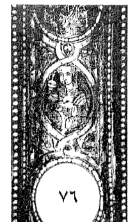
وخطب له بصقلية. ومن الأمور التى عمد إليها الفاطميون لمحاولة إزاحة المذهب السنى فى صقلية، تعيين قضاة يدينون بالمذهب الإسماعيلى، من ذلك ما قام به عبيد الله المهدى من عزل القضاة المالكية بصقلية، وتعيين أحد الزعماء الكتاميين، قاضيا على صقلية وهو إسحاق بن أبى المنهال.

كما أرسل أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى العوام من القاهرة الفاطمية قاضيا على صقلية وذلك فى سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م حيث منح سجلا بذلك من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢٠م).

ومما يدلل على استمرار محاولة الفاطميين لنشر المذهب الشيعى فى صقلية، أنه بعد تولى أحمد بن الحسن بن على الكلبى إمارة صقلية (٣٤١-٣٥٩هـ/ ٩٥٢-٩٦٩م) بعد أبيه، أخذ معه مجموعة من وجوه الجزيرة، وذهب بهم إلى المعز لدين الله الفاطمى(٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م) فبايعوا المعز، وخلع عليهم الخلع، ثم عادوا إلى صقلية، بعد أن دخلوا فى المذهب الإسماعيلى.

وقد حاول الفاطميون استغلال بعض المظاهر الاجتماعية للتقريب بين أهل السنة والشيعة فى صقلية واستمالة أهلها لمناصرة الفاطميين وولاتهم، من ذلك أن المعز لدين الله الفاطمى، قد كتب كتابا إلى واليه على صقلية أحمد بن الحسن بن على الكلبى، يأمره فيه أن يقوم بإحصاء أطفال جزيرة صقلية وأن يختتنهم ويكسوهم فى اليوم الذى يطهر فيه المعز ولده ؛ ونفذ أمير صقلية ذلك

سور القاهرة الفاطمية وجانب من باب الوزير ومئذنة مسجد الحاكم



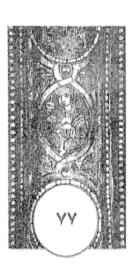
فختن خمسة عشر ألف طفل، وتم توزيع مائة ألف درهم، وخمسين حملا من الصلات عليهم وخطب للخليفة الفاطمى على منابر صقلية، وبذلك أصبح الوالى الصقلى ممثلا للخليفة الفاطمى.

وكان المذهب الإسماعيلى شائعا بين الفرق الدينية الأخرى فى عهد الفاطميين باستثناء المذاهب السينية، كما كان الفاطميون يحاربون المذاهب والفرق الأخرى، كالمعتزلة، والمرجئة، يقول ابن حوقل: «إن أهل صقلية يكرهون المرجئة، ويكفرون المعتزلة» وذلك لأن أهل العراق يدعون مرجئة، وإنما سموا بذلك لتركهم القطع على أهل الكبائر بالخلود.

وقد استمال الفاطميون إليهم من الفقهاء من كان يقف فى صفهم كما هو الحال بالنسبة للبرادعى، يحث دخل صقلية بعد أن امتدح ولاتها، والخلفاء الفاطميين، كما أنه ألف كتابا فى نسب بنى عبيد مما جعلهم يهتمون به ويكرمونه فما كان منه إلا أن ألف كتبه فى صقلية تحت رعاية أمرائها من قبل الدولة الفاطمية. وكانت الأوضاع الدينية فى جزيرة صقلية تتأثر بالأحداث السياسية التى مرت بها الجزيرة. ففى فترة الأغالبة سيطر المالكية بمذهبهم على صقلية. على الرغم من موالاة الأمراء الأغالبة للأحناف. ثم انحسر المذهب المالكى فى ظل السيادة الفاطمية على صقلية، ولكنه لم يختف تماما بدليل أننا رأينا أن هناك قضاة مالكية تولوا قضاء صقلية فى العهد الفاطمى.

وإذا كان المذهب الإسماعيلى قد برز فى فترة من الزمن فى صقلية فإنه سرعان ما اختفى بفعل مقاومة الفقهاء والعلماء له بصقلية حتى عاد للمذهب المالكى سيطرته. فما إن حل منتصف القرن الخامس الهجرى حتى كان المذهب المالكى هو المسيطر وتزعمه شيوخ المذهب كالسمنطارى وابن يونس؛ ولذلك كله نجد أن أغلب الدراسات الشرعية بصفة عامة، والفقهية بصفة خاصة تركزت على دراسة المذهب المالكى، والتأليف فيه، وشرح مصادره، والتعليق عليها، واختصارها وخلاف ذلك. أما فيما يتعلق بالديانات الأخرى فى صقلية فالمعروف أن صقلية كان بها طائفة من النصارى واليهود.

فبالنسبة للنصارى، كان منهم فى صقلية طائفة كبيرة يدينون بالمسيحية. ولما فتح المسلمون صقلية تركوا لأهلها عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة، واكتفوا منهم بجباية قليلة أعفوا منها الرهبان والنساء والأولاد، كما تركوا لهم كنائسهم القائمة، إلا أنهم لم يسمحوا لهم ببناء كنائس جديدة. على خلاف ما كان عليه الحال فى الأندلس، على أن بعض النصارى فى صقلية قد دخل فى الإسلام، كما كان اليهود يزاولون عبادتهم بحرية تامة مثلهم فى ذلك مثل النصارى دون أن يسمح لهم ببناء معابد جديدة.







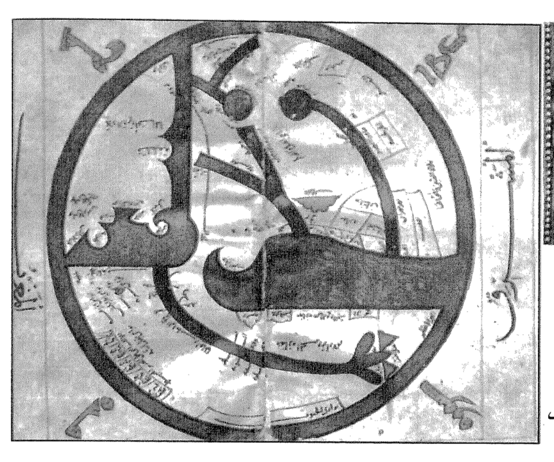
١- الكتّاب :

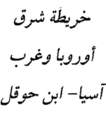
يعتبر الكتاب من أهم المؤسسات العلمية الإسلامية ، وكان الذين يتولون التعليم فى المكاتب يطلق عليهم اسم المعلمين، أو المكتبيين. كما كان الآباء يدفعون بأبنائهم إلى المكتب منذ الصغر فى الخامسة أو السادسة وبعضهم كان فى السابعة والثامنة. وفى ذلك يقول أبو حامد الغزالى: «إن التربية الدينية يجب أن تبدأ فى سن مبكرة؛ ذلك لأن الصبى فى هذه السن يكون مستعدا لقبول العقائد الدينية والإيمان بها دون أن يطلب عليها دليلا» كما أشار إلى «أن الصبى لا بد وأن يتعلم فى الكتاتيب القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم، وبعض الأحكام الدينية والشعر».

وصقلية الإسلامية ليست إلا واحدة من البلدان الإسلامية، التى لا تكاد تختلف فيها طريقة التعليم كثيرا عن غيرها من البلاد الإسلامية سواء فى غرب العالم الإسلامى أو شرقه، فقد وجدت الكتاتيب فى صقلية، وقامت بدورها فى تعليم الناشئة من أبناء صقلية. ـ ومن هاجر إليهم من المسلمين. فهذا ابن حوقل يشير إلى كثرة المكاتب بصقلية فيقول: «والمكاتب بها فى كل مكان».

ولقد رأى ابن حوقل ذلك بنفسه عندما زار صقلية، وأبدى استغرابه من كثرة المعلمين والكتاتيب، كما أبدى تحاملا كبيرا على معلمى صقلية، فذكر :«أن الغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به فى كل مكان، وهم فيه على طبقات مختلفة ومنازل شتى».

ولقد كثر المعلمون فى المكتب الواحد فى صقلية، وهى تمثل صورة راقية من صور التعليم فى صقلية، فأحد الكتاتيب بها لم يقتصر العمل فيه على معلم واحد بل كان فيه خمسة معلمين،





خريطة شرق أوروبا وغرب آسيا- ابن حوقل

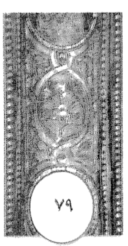
ولهم من بينهم مدير الكتاب، وهذا أمر له دلالته فى اهتمام الصقليين بتعليم الناشئة، وهذا يفسر أن طلاب المكتب لابد وأن يكونوا كثيرى العدد، وإلا لما احتاج الأمر إلى خمسة معلمين، ويرأسهم أحدهم.

كما أن ذلك يعكس صورة عن التنظيم الإدارى للكتاتيب فى صقلية آنذاك، حيث وجد مسئول يرأس الكتاب، مما سيضفى على العملية التعليمية والتربوية بعدا تنظيميا، ينعكس على التحصيل العلمى والثقافى لمرتادى تلك الكتاتيب.

على أن الصورة السابقة لم تعجب ابن حوقل، إذ تضايق من ذلك الوضع مبديا استغرابه ودهشته من وجود خمسه معلمين فى مكتب واحد. فقال: «ومن أغرب ما رأيته بصقلية خمسة معلمين فى مكتب واحد، يعلمون فيه الصبيان، شركاء متشاكسون على باب عين شفاء، يرأسهم شيخ يعرف بالملطاط».

وتدل كثرة المعلمين والكتاب (جمع كاتب) فى صقلية على نشاط تعليمى واسع، قال ياقوت عن مدينة بلرم: «والغالب على أهل المدينة المعلمون فكان فى بلرم ثلاثمائة معلم».

وقد أشار ابن حوقل إلى أن تلاميذ المكتب كثيرون، وقد ذكرت إحدى الروايات إلى أن عدد الطلبة كان يصل أحيانا إلى ثمانين طالبا فى الحلقة الواحدة، وأن هذا العدد كان يضم طلبة من بلدان مختلفة.



وفى هذه المكاتب، كـان الصقلى يتلـقى علومه الأولى، ثم ينتـقل إلى حلقات الشـيوخ ، فإذا أراد أن يسافـر إلى المشرق أو غيره كـان له ذلك حيث يلتقى بعلمـاء البلاد الإسلاميـة، ويدرس على يد أساتذة مشهـورين، ثم يعود وقد حمل إجازات كثيرة. أو قد يكاتب هؤلاء الأساتذة دون أن يرحل إليهم.

أمـا عن أماكن الكـتاتيب فى صـقليـة ، فهى إمـا أن تكون فى بيـوت المعلمين، أو المكتـبيين، وقد تكون فى المسـاجد: فقد ذكـر ابن حوقل - عند حديثه عن المساجد فى صقلية - ما يشير إلى أن بها كتاتيب. حيث قال بعد أن ذكر أن الأب الصقلى قـد يكون له مسجد خاص به والابن له مسـجد خاص، وليس بينهما سوى أربعـين خطوة «وفى هذه الأربعين خطوة التى ذكرت بين مسجده ومـسجد آبيه مسجد أخر معلق له أمان وبه مكتب».

وذكر الرحالة ابن جبير ما يفيد بأن أكثر المساجد فى صقلية، كانت «محاضر لمعلمى القرآن» ولعله بذلك يشير إلى المـرحلة الثانية من مراحل التعليم فى الكتـاتيب، وهى تعليم القرآن وبعض العلوم الدينية.

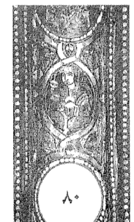
أما فيما يتعلق بطريقة التعليم فى الكتّـاب، فتكاد تكون واحدة فى كافة البلدان الإسلامية، وذلك نظرا لوحـدة الهدف الذى أنشئت من أجـله، المتلخص فى تعليم القراءة والكتـابة، وتعليم القرآن وبعض العلوم الدينيـة، على أن طرق المعلمين والمؤدبين قد تختـلف من شخص لآخر، إلا أنها فى كل الأحوال لن تخرج عن الإطار الذى حدده من كـتب عن المعلمين وآدابهم وواجباتهم، والمحتسبين.

ومن الطبـيعى أن تكون الأيام الأولى للطفـل صعـبة؛ لذلك كـان على المعلم وأهل الطفل العمل على تعويده على المناخ الجديد.

وكان من العادة أن يذهـب الطفل إلى الكتاب مبكرا، حيث يظل هناك إلى منـتصف النهار ويعود الطفل إلى منزله للغـداء والراحة قليلا، ثم بعد ذلك يتـجه إلى الكتاب مرة ثانيـة لكى يبدأ الدراسة فترة ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل فينصرف إلى منزله.

ويرتكز ذلك على ما أثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أمـر أحد معلمى الصبيان بأن يلازمهم: «بعد صلاة الصبح إلى الضحى الأعلى، ثم من الظهر إلى صلاة العصر، ويسرحهم بقيه النهار».

وكان من طرق التـعليم فى الكتاتيب أن يقوم المعلم بقـراءة آية من آيات القرآن الكريم، ثم يقوم بعض المعلمين بتعـليم الأطفال السور القرآنية القصيرة أولا؛ وعـندما ينتقل الطفل من جزء،



كان عليـه أن يقرأ على معلمه مـا قد سبق وتعلمه، وهكذا يمـضى الصبى من جزء إلى جزء.

كمـا كان معلم الكـتاب مسـئولا عن تعليم الصبـيان القـراءة والكتابة، ولذلك كان على الأطفال أن يحملوا معـهم ألواحهم ومحابرهم، وقد نص ابن سحنون أنه «ينبغى أن يجعل لهم وقتا يعلمهم فيه الكتابة».

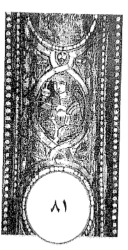
٢- المساجد:

اشتهرت صقلية بكثرة المساجد، وقد سجل الرحالة ابن حوقل ما شاهده فى صقلية عن كثرة مساجدها، وأبدى دهشـته من تلك الكثرة فذكر أن: «بمدينه بلرم من المساجد والمدينة المعـروفة بالخـاصة والحارات المحـيطة بها.. نيف وثـلاثمائة مسـجد.. وفى مـدينة بلرم وحدها: ما يزيد على مائتى مسجد» ويضـيف ابن حوقل أن ذلك العدد من المساجد لم يسمع عنه ببلد من البلدان لا ما ذكر عن أهل قرطبة، فإنه كان بها خمسمائة مسجد فقال: «ولم أر مثل هذه العدة من مساجد بمكان، ولا بـلد من البلدان الكبار، والتى تستولى على ضعف مساحتـها شبها، ولا سمعت به إلا ما يذكره أهل قـرطبة من أن بها خمسمائة مسجـد، ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته فى موضعه على شك منى فيه؛ وأنا محققه بصقلية لأنى شاهدت أكثره».

وكانت المساجـد فى صقلية قريبة من بعـضها البعض، وقد يختص أحـدهم بمسجد له دون غيـره، وقد يكون للأب مسجـد، وللابن مسجد، وذلك مـا يدلنا عليه قول ابن حـوقل: «ولقد كانت واقـفا ذات يوم بهـا - أى بلرم - بجوار دار أبى مـحمد عـبد الواحد بن مـحمـد المعروف بالقفصى الـفقيه الوثاقى، فرأيت من مـسجده فى مقـدار رمية سهم نحو عـشرة مساجـد يدركها بصرى، ومنهـا شىء تجاه شىء، وبينهما عـرض الطرق فقط ... وربما كان أخوان منهم مـتلاصقة دارهما وقـد عمل كل واحد منهـما مسجـدا لنفسه ليكون جلوسـه فيه لوحـده، وفى جملة هذه العشرة مساجـد التى ذكرتها مسجد يصلى فيه أبو محـمد بن القفصى هذا، وبينه وبين دار ولد له دون الأربعـين خطوة، وقد ابتنـى ابنه مسـجدا إلى جـانب داره. وفى هذه الأربعـين خطوة التى ذكرت بين مسجده ومسجد أبيه مسجد آخر».

وكانت ظاهـرة كثرة المسـاجد فى البـلاد الإسلاميـة، عمليـة ظاهرة صاحـبت الفتـوحات الإسلامية،

كذلك وصف الـرحالة ابن جبـير مـدينة «باليرمو»، فـى جزيرة صقليـة، وأشار إلى كـثرة مساجدها، وأنه كانت تستخدم إلى جانب الصلاة أمـاكن لتعليم القرآن فيقول: «وللمسلمين بهذه المدينة أذان مسموع ... وبها جامع يجتمـعون للصلاة فيه ... أما المساجد فكثـيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن».



ومما أشار إليه ابن حوقل، وابن جبير عن المساجد فى صقلية، وقيامها بالعملية التعليمية نستطيع أن نذكرأن المسلمين فى صقلية كانوا يتناوبون على التعليم فيها. فقد نص ابن حوقل على ذلك بقوله: «يتواطأ أهل الخبرة منهم فى عملها ويتساءلون فى معرفتها وعددها».

ويؤكد ذلك ابن جبير حيث يذكر أن تلك المساجد كانت تستخدم محاضر لمعلمى القرآن. إذ المساجد فى صقلية كانت تقوم بمهمتها التعليمية خير قيام ففيها يتلقى التلاميذ المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، وذلك تمهيدا لقراءة وحفظ القرآن الكريم الذى يمثل أساس الثقافة الإسلامية.

وهذه الكثرة فى المساجد والتى فسرها ابن حوقل بأن كل واحد يريد مسجدا له، وذلك لانتفاخ رؤوسهم، تدلنا بتفسير آخر على أن تعليم التلاميذ انتشر فى المساجد مقابل مبلغ بسيط يدفعه التلاميذ، وبذلك يعتبر التلاميذ طريقة للكسب,

كما يمكن القول أيضا أن التنافس الذى كان موجودا فى صقلية فى بناء المساجد كان له دور الكبير فى انتشار التعليم فى الجزيرة، وكثرة العلماء. وهذا يتفق مع ما أفادتنا به المصادر وكتب التراجم عن العدد الكبير لعلماء صقلية ومؤلفاتهم التى وصل بعضها إلينا، هذا فضلا عن بعض العلماء والمؤلفات التى لم تشر إليها المصادر. وابن حوقل عندما يشير إلى المساجد بصقلية يتحدث عن «اجنحتها وأبراجها فكأنه يذكر أن بها حدائق وبساتين، وأبراج وبأنها تتكون من أكثر من طابق»، وإذا كان الكلام كذلك، فإن تلك المساجد كانت تطغى عليها بالدرجة الأولى الصبغة الحياتية على الصبغة الدينية.

فقد أشارت المصادر إلى أن التعليم فى مرحلته الثانية فى الجوامع كان يقوم على ثلاثة أسس **أولاها:** تعلم القرآن بعد حفظ القرآن الكريم، **وثانيها:** دراسة الفقه الذى يقوم على الأساسين السابقين، ويؤكد ذلك ما أورده أبو الطاهر السلفى فى معجمه عند سؤاله لأحد علماء صقلية عن دراسته بالجزيرة فأجاب: «قرأت القرآن على أبى محمد عبد الله بن فرج الأزدى، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله القتال، وهؤلاء شيوخ المدينة بصقلية، والمقدمون فى الإقراء، وسمعت الحديث على عبد الحق بن محمد بن هارون السهمى، وعتيق بن على بن داود السمنطاوى؛ وقرأت الفقه على محمد بن يونس، وأبى العباس أحمد بن محمد ...».

وثالثها: ارتباط كثرة المساجد فى صقلية بكثرة المعلمين والكتاتيب، وهذه الكثرة تشير بوضوح إلى ما كان يوجد من نشاط تعليمى كبير فى صقلية، قال ابن حوقل: «والغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به فى كل مكان».

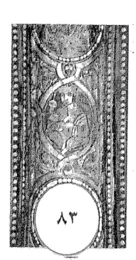
فيروى معلموهم أنهم كانوا: «يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم، وألبابهم، وفقهاؤهم، ومحصلوهم، وأرباب فتاويهم وعدولهم وبهم يقوم الحلال والحرام، وتعقد الأحكام، وتنفذ الشهادات، وهم الأدباء والخطباء».

وقد رأى منهم ابن حوقل من يقوم ويخطب فى الناس يوم الجمعة، كما وصف بعضهم بأنهم من أهل السير والعدالة، ورأى منهم القضاة، والفقهاء ؛ وكانوا هم الذين يوجهون العامة فى أمور الدين والدنيا، كما كانوا يتدخلون فى الأمور السياسية، ولعل ذلك هو سبب تضايق ابن حوقل من معملى صقلية - خاصة إذا علمنا أنه زار صقلية فى فتره التبعية الفاطمية - مما جعله يصب عليهم نقمته ويرميهم بكل رذيلة، ويدل على ذلك قوله فيهم: «حتى إنهم المتكلمون على السلطان فى سيره واختياراته، والإطلاق بالقبائح من ألسنتهم بمعانيه، وإضافة محاسنه إلى قبائحه».

وبعد. . . فإن الكثرة فى عدد المعلمين والمساجد والكتاتيب كانت دليلا على نشاط تعليمى واسع بجزيرة صقلية، وبصرف النظر عن الأسباب التى أدت إلى كثرة المساجد وكثرة المعلمين فقد كان المسجد يقوم بمهمة التعليم إلى جانب وظيفته الأساسية، و كان الصقلى يتعلم فى حلقات الشيوخ فى المساجد، ثم إذا أراد أن يغادر صقلية إلى أماكن أخرى كان له ذلك، والتقى بعدد من العلماء والشيوخ، وعاد وهو يحمل إجازات كثيرة، أو كاتب هؤلاء دون أن يرحل، واستجازهم كتبهم، أو زار البيت الحرام والتقى بالعلماء فى مكة من المقيمين والمجاورين، أو مر على مصر وهو فى طريقه إلى الحج والتقى بعلمائها وأدبائها.

ولم تكن مهنة التعليم هربا من الجهاد كما ذكر ابن حوقل فهى لا تدر رزقا كثيرا على المشتغلين بها كما ذكر هو بأن أحدهم لا يصيب عشرة دنانير فى السنة من تلاميذه. بل كان يزاول مهنة التدريس عدد كبير من أعيان البلاد وأنه كان يتخرج على أيديهم عامة الناس وكثير من أولاد السراة.

وفى مقابل ما ذكره ابن حوقل عن معلمى صقلية، فإننا نذكر نصوصا مما ورد فى كتاب «الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار» لمؤلفه عبد الرحمن بن محمد الصقلى، أحد علماء القرن الرابع الهجرى. وتلك النصوص يظهر من خلالها احترام المعلمين والعلماء، وتدلنا على سمو التعليم وقدر علمائه وفضل مرتادى مجالسه، وما ينبغى أن يتصف به كل من العالم والمتعلم، وقد قدر علماء صقلية وتلاميذها وطلاب العلم فيها كل ذلك، فمن ذلك قوله : «لا يزال العبد جاهلا حتى يطلب العلم بالأدب، ولا يزال مدعيا بالعلم حتى يعمل به على الخوف والرجاء».



وقوله أيضـا: «إذا حدث فى قلوب الجهال الـغنى عن العلم أحدث الله فى قلوب العلمـاء الجفاء لـهم» كما قـال: «من ترك طلب العلم تحكمت فـيه دواعى الجهل، ومن طلب العلم بغـير أدب تحكمت فيـه دواعى العجب» ومنه قوله: «إذا لم يكن المتعلم أرضى للمعلـم قل نفعه بما تعلمه» ومن ظن أن العلم ينفعـه دون العمل به فهو مـفتون بالقوة، ومن اسـتغنى برأيه دون شيخـه فهو هالك مسـتدرج فى حالتـى العلم والجهل»، ويقول أيضـا: "تكبر العلمـاء فتنة عامة، وتواضع العلماء رحمة خاصة".

ذلك أن المسلمـين فى صقليـة كانوا يهـتمـون بتنشئـة أبنائهم وتثقـيف عقولهم، بدليل تلك الكثرة الهائلة من المساجـد، والتى كان أهل الخبرة من علماء الجزيرة يتناوبون على تعليم الناس بها، مما يدل على كثرة العلماء أيضا وكثرة المتـعلمين. كما أن القوم جميعا كانوا يعلمون تعدادها ويتساوون فى معرفتها، مما يدل على اهتمام المعلمين والمتعلمين بدور العلم فيه.

ثم يأتى ابن جبـير، ويؤكد فى صراحة ووضـوح أن تلك المساجد الكثيـرة لا تحصى، كان أكثرها مـحاضر لمعلمى القرآن، وهكذا يبدو لنا كـيف كانت تمتلئ المساجد بالتلامـيذ المسلمين فى صقلية، لتلقى مبادئ القراءة والكتابة التى هى ضرورة لازمة لمن يتصدى لحفظ القرآن.

ويتضح أيضا من كـلام ابن حوقل، أنه لـم تكن هناك إدارة عامة تسـيطر على هذه الأماكن التعليمية فى ذلك الوقت عدا ما ذكره عن الكتاتـيب، وأن بأحدها خمسة معلمين يرأسهم أحدهم مما يشـير إلى تنظـيم إدارى كان مـوجودا بذلك المـكتب. بل كانت أشـبـه بمدارس حرة يسـتطيع أصحـابها عن طريقهـا التكسب، ولعل هذا هو السر الذى خـفى على ابن حوقل عندما أدهشـته الكثرة العددية بهذه المساجد.

كما تشـير رواية ابن حوقل التاريخيـة، أنه استطاع - على قدر جهده وطاقـته- أن يحصى أكثر من ثلاثمـائة، معلم فى مدينة «بلرم»، كمـا أحصى المساجد بنيف وثلاثمـائة فى حين أن ابن جبيـر- الذى أتى بعده بقرنين من الزمان - يذكر أن المسـاجد كانت كثيرة لا تحـصى، وأنها كانت تستخدم كمحاضر لمعلمى القرآن ؛ وقال ابن حوقل فى معرض حديثه عن «باليرمو» أنه زار مسجد القصابين بها، وأنه يتسع لسبعة آلاف رجل، إذا غص بأهله، يتسع لستة وثلاثين صفا فى الصلاة، كل صف منها لا يزيد على مائتى رجل".

٣- دور العلماء فى صقلية:

قامت دور العلمـاء فى صقلية الإسـلامية بدورها فى تعليم الناس، وتـفقيهـهم وإن كانت الإشارات فى المصادر إلى ذلك قليلة، فلم نجد نصوصا صريحة تدل على ذلك إلا ما ذكرته من أن



أبا عمـرو ميمون بن عـمرو قاضى صقليـة، والمتوفى سنة ٢١٠هـ/ ٩٢٢م لم ينزل فى دار القضـاء، واستقـر فى منزله، وكانت خادمتـه تغزل وتبيع غـزلها وتطعمه، وكان الناس يأتون إليـه فيقرعون عليه الباب، فيـخرج إليهم ويقضى بينهم، واستمر حاله على ذلك سنين حـتى خرج إلى القيروان وبها توفى. أما فيما يتعلق بقصور الحكام والأمراء، فقد كان فيها مجالس العلم والأدب، فهذا الأميـر مستـخلص الدولة عبـد الرحمن بن الحـسن الكلبى يدعو إلى مـجلسه أصحاب المواهب والإبداع، وأصبح منزله عامرا بالأدباء.

٤- دور الكتب:

كانت دور الكتب فى صقليـة موجودة بالجوامع والأربطة والمدارس، وأعظمهـا كان بقصر الأمير، فأهم مكتبة بصقلية هى مكتبة بنى الحسين بالقصر الكبير. كما كان بقصر الوالى ابن منكود مكتبة كبيـرة بمدينة «مازرة» وكان هو نفسه أديبا. وفى العصر النورمندى اتخذ روجـار مكتبة عربية ضم إليها أهم التصانيف العربية، وغيرها. كما كان يوجد بالجوامع مكتبات ولاسيما الجامع الكبير بمدينه «بلرم» وقد أدخـل المسلمون على المكتبـة عناصر جديدة منهـا أنهم نشروا الكاغـد، فكثرت الكتب، ومنها الانتقـال من الدرج الملفوف إلى الدفتر المبسوط، ومنهـا تزيين الكتاب وابتداع الخط الكوفى المزهر، والمزين، والمذهب، ومنها الطباعة الخشبية التى جلبها العرب من الصين على عهد هارون الرشيد.

٥- العلوم والمعارف فى صقلية

أ- علوم القرآن:

أقدم إشـارة وصلتنا عن علماء صـقلية فى مجـال القراءات، ما أورده ابن الـزبير فى "صلة الصلة" من أن أبا على الحسن بن عبد الرحمن بن عبد ربه البـجلى الصقلى، كان مقرئا بصقلية، وقد أخذ القراءة عـن صهره يوسف بن تعيشت المقرئ، وقـد توفى بصقلية سنة ٢٦٠هـ/ ٨٣٥م. ولم يعطنا النص أى تفضيل عن الصقلى المذكور سوى تلك الإشارة فقط.

ومن علماء صقليـة الذين ورد ذكرهم فى المصادر، وكان لهم اهتمام بعلم القـراءات محمد ابن خراسان الصقلى المتوفى بصقلية سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، فـقد وصف بأنه: مقرئ متصدر، إلى جانب أنه نحوى، وكـانت له رحلة إلى مصر سمع فيـها من بعض علمائها المتخـصصين فى علم القراءات، وأخـذ عنهم، ففـد درس على يد المظفر بن أحمـد بن حمدان المـتوفى سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م، وأخذ القراءة عنه. كما أنه التقى بأحد العلمـاء المشهورين فى الدراسات القرآنية والنحوية



بمصر، وهو أبو جعفر النحـاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م وسمع منه مؤلفاته وكتبها عنه.

ومن خلال مـا أوردته المصادر عن ابن خراسان الصـقلى، وردت إشارة إلى أن له مؤلفات تتعلق بالدراسات القرآنية، كمـا أن وصفه بأنه مقرئ متصدر يدل دلالة واضحـة على أنه صاحب باع كبـير فى علم القراءات، فقـد تصدر للإقراء بمساجد صقلية وحدث بهـا. وذلك بعد عودته من رحلته إلى مصر فى طلب العلم إلى بلاد المشرق الإسلامى، والتقى بعلمـائهم، وقرأ عليهم، وعاد إلى صقليـة وتصدر للقـراء بها، ومن العلمـاء الذين درس عليهم أبو العـباس أحمد الصقلى، قـسيم بن مطير، وعلى بن داود الدرانى، وإسحاق بن السـراك البكرى، كما قرأ على أبى الفتح فارس بن أحمد. وبالنظر إلى شيوخ أبى العباس الصقلى نجد أنهم كانوا علماء لهم مكانتهم الضابطين لأكـثر من رواية، وبذلك يتبين مدى ما تمتع به أبو العـباس الصقلى من دراية فى علم القراءات جعلته يتصدر للإقراء.

ولقد تخرج على يدى أبى العباس فى صقلية أحد علمائها المشهورين فى علم القراءات وهو أبو بكر محمد بن أبى الحسن الذى يعرف بابن نبت العروق.

كما ذكرت المصـادر أيضا علمين من أعلام صقلية فى علم القـراءات، كانت دراستهم على أحد مـشاهير الـقراء فى مصـر وهو العلامة عـبد المنعم بن عـبيد الله بن غلـبون صاحب كـتاب «الإرشاد فى السبع»، والمتوفى سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م حيث ذكر أن الحسن بن عبد الله الصقلى وأبا الحسين محمد بن قتيبة الصقـلى قد عرضا قراءاتهما على الشخص المذكور، ولم تزد المصادر على ذلك شيئا ولم تعطنا معلومات أوفى عن هاتين الشخصيتين.

ومن أشهر علمـاء القراءات الصقليين، والمبرزين فى هذا الميدان، ومـيدان النحو أبو الطاهر إسماعيل بن خلق بن سعيد بن عمران الصقلى المتوفى سنـة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م.

فقـد أخذ أبو الطـاهر مؤلفـات تتعلق بالدراسـات القرآنيـة، إذ صنف كتـاب «العنوان فى القراءات» والذى قيل عنـه: «إن عمدة الناس فى الاشتغـال بهذا الشأن عليه». كـما صنف أيضا كتاب «الاكتفاء» توفى القراءات أيضا، ثم لخص من كتاب الاكتفاء كتابا مختصرا «فيما اختلف فيه القراء السبعة» ذكر فيه اختلاف القراء السبعة بإيجاز واختصار فى أسلوب سهل وبسيط.

كما أن أبا الطاهر اختصر كتاب «الحجة» لأبى على حسن بن أحمد الفارسى، وانتفع الناس بذلك العمل الذى قام به. وله كتاب أيضا فى إعراب القرآن يقع فى تسعة مجلدات.



ومن علمـاء صقلية فـى القراءات "أبو بكر مـحمد بن أبى الحـسن على الأزدى الصـقلى المتـوفى سنه ٤٦٩هـ/١٠٧٦م. وهـو الذى يعـرف بابن نبت العروق. وقـد وصف بأنه شيخ متصـدر، وكان قد تلقى القراءات فى صـقلية على أبى العباس أحـمد بن محمد الصقلى – الذى أشرنا إليـه آنفا – ثم التقى فى القيروان بأبى على الحسن بن بليمة. وقرأ عليه.

ومن علماء القـراءات الصقليين خـلوف بن عبد الله البـرقى والذى كان حيا وسط المائة الخامـسة للهجرة، فقد ورد أنه كـان عالما بالقراءات والإعراب، فكان بذلك من كبار علماء القراءات فى صقلية؛ إلى جانب كونه أديبا فقد ذكر له القفطى بعضا من شعره فى الوعظ والإرشاد.

وقد أورد أبو طاهر السلفى فى معجمه عن علماء صقلية فى الدارسات القرآنية، حيث إنه أشار إلى عـدد منهم، وذكر مـلاقاته لهم، وتبـادل الحديث مـعهم ؛ ومن هؤلاء : أبو عـبد الله محمـد بن عبد الله القناد، حـيث وصفه بأنه : «من شيـوخ المدينة بصقلية والمقدمـين فى الإقراء بها»، ومنهم محمد بن إبراهيم الشامى.

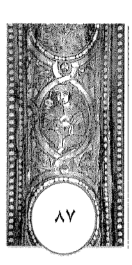
وممن أوردهم السلفى فى معجمه، أبو حفص عمر بن يوسف بن محمد بن الحذاء الصقلى المتوفى سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م وكان قد قرأ القرآن على المقرئين السابقين محمد بن عبد الله القناد، وعبد الله بن فرج المدينى.

وقـد أشار ابن الجـزرى فى طبقـاته إلى ابن الحـذاء الصقلى، ووصـفه : «بالمقـرئ الزاهد القدوة».

ومنهم أبو البهاء عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرئ الصقلى، الذى ولد بصقلية سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، وكان قد قرأ القرآن فى صقلية على يد علمائها وشيوخها فى الإقراء، فقد قرأ على أبى محـمد عبـد الله بن فرج المدينى، ومـحمد بن إبراهيم الشـامى، وأبى بكر محـمد بن الأزدى الصقلى، المعروف بابن نبت العروق، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله القناد، وهؤلاء هم الذين وصفهم السلفى بأنهم «شيوخ المدينة بصقلية، والمقدمون فى الإقراء».

وممن أشارت إليهم المصـادر فى علوم القرآن وقراءاته أبو عبد الله محـمد بن أبى الفرج بن أبى القاسم المازرى، المعروف بالذكى فى عـلوم القرآن وغيره، وكان للمازرى المذكـور مؤلفاته فى علوم القرآن وتفسيره، ومن ذلك كتاب «الاستيلاء» وهو كتاب فى علوم القرآن.

وقد ذكرت لنا المصـادر مقرئا من صقلية يدعى على بن كـموس، الذى وُصِفَ بأنه: «شيخ مقرئ»، وأنه قرأ على ابن نفيس، وأبى الطاهر إسماعيل بن خلف، كما قرأ عليه أحمد بن محمد بن خلف.



أما أشهر علماء صقلية فى القراءات فهو ابن الفحام الصقلى ؛ واسمه عبد الرحمن بن عتيق بن خلف الصقلى، ويكنى بأبى القاسم، ويعرف بابن الفحام الصقلى.

أما عن علم التفسير ووضعه فى صقلية فإن المصادر شحيحة فى إعطائنا معلومات عن المفسرين بصقلية وجهودهم فى مجال التفسير. وكل ما أمدتنا به المصادر لا يتعدى كلمات يسيرة عن بعض أعلام صقلية، فتشير إلى أنه من أهل القرآن والتفسير، ومن ذلك ما أورده القفطى من أن أبا بكر محمد عبد الله المقرئ النحوى الصقلى، كان" من أهل القرآن، والورع والتعفف" .

ب-علم الحديث:

وفيما يتعلق بالدراسات المتعلقة بالحديث النبوى الشريف فى صقلية، وجهود علمائها فى هذا المجال، فقد ذكرت المصادر أن من أوائل محدثيها، أبو العباس القلورى، والمتوفى سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م. واسمه محمد بن عمرو بن العابس. وقد روى عنه وحدث عن أبى داود السجستانى، فى سننه، وسماه فى بعض الروايات، محمد بن عمرو بن العباس.

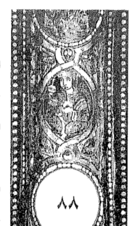
ومن علماء صقلية فى مجال الحديث "على بن الحسن الصقلى القزوينى" ، المتوفى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٣م حيث ذكر ابن حجر: أنه سمع الكثير فى بلده صقلية ثم سافر ورجع، فألف وأملى، وله كتاب "سر الأسرار من كلام الشيوخ الأخيار" .

وكان على بن الحسن الصقلى قد التقى فى رحلاته ببعض الشيوخ ودرس عليهم، وكان من هؤلاء ابن شاهين.

وممن اشتهر بدراسة الحديث فى صقلية أحد الأمراء الكلبيين. حيث ذكرت المصادر أن أبا محمد عمار بن المنصور الكلبى، كان عالما مشهورا من علماء الحديث، وأنه من أفاضل العلماء وسادات الأمراء، وأنه ذو يد فى الفقه والحديث النبوى الشريف.

كذلك كان من أعلام صقلية فى مجال الحديث أبو بكر محمد بن إبراهيم بن موسى التميمى، المصرى، الصقلى، الصوفى المتوفى بعد سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م. وقد سافر فى طلب الحديث إلى العراق وحضر بعض مجالس أهل العلم، وعاد إلى صقلية وكتب الكثير، وقال عنه المقريزى: أنه حدث بأحاديث يسيرة، وروى عن عبد الله بن محمد المباركى، وحفص بن عمر شيخه.

ومن أهل الحديث فى صقلية أيضا: أبو عمران موسى بن الحسن بن عبد الله بن يزيد الصقلى، والذى سافر فى طلب الحديث إلى مصر، ودرس بها، وحدث بها. ومنهم ابن القراء الصقلى، حيث ذكر أنه من المحدثين الصقليين.



كما أشارت المصادر إلى أسـماء بعض الصقليين الذين كان لهم دور فى الدراسات المتعلقة بالحديث، دون أن تعطينا أى تفصيلات عن ذلك الدور ومن هؤلاء عبد الرحمن بن محمد بن بكر، الذى وصف بأنه كان ينزع إلى الصوفية، وسافر عبر بلاد المغرب ومصر والحجاز لطلب العلم، والحسن بن على الصقلى الذى توفى بمكة سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠١م. وأبو القاسم الصقلى المتوفى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م. وكذلك أبو مسعود سليمان الصقلى، والذى وصف بأنه من صغار المحدثين الصقليين، وأنه استقر فى بغداد.

ومن العلماء الصقليين الذين كان لهم دور بارز فى الحديث، أبو بكر الفرضى الصقلى، وهو أحد فقهاء صقلية. فقد روى الحديث عن أحد علماء الحديث بالقيروان وهو الشيخ على بن محمد المعافرى، المعروف بالقابسى. ومن علماء صقلية فى الحديث أبو البهاء عبد الكريم بن عبد الله الصقلى. الذى وصف بأنه من أهل القراءات والحديث، وروى حديث ابن عمر السابق الذكر «الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» عن المالكى صاحب كتاب «رياض النفوسى».

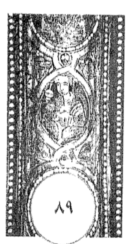
وكان محمد بن مسلم بن محمد بن أبى كبر القرشى المازرى من محدثى صقلية، وقد توفى سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٦م بالإسكندرية، وكان قد درس الحديث على أبى بكر الطرطوشى.

ومن علماء الحديث الصقليين المهاجرين إلى مصر، أبو عبد الله الحضرمى، والذى قام بتدريس الحديث بها، فدرس عليه طلاب العلم، ومنه أبو موسى عيسى بن خليفة بن مروان اللخمى، المالكى، وأبو السيار غادى بن سند بن عياش الغسانى المتوفى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م، وكرم بن الصفار.

وكان لابن الفحام الصقلى دور فى تدريس الحديث إلى جانب شهرته فى علم القراءات، فقد درس عليه الحديث فى الإسكندرية، أبو السيار غادى بن سند سابق الذكر أنفا.

وفى مصر كذلك نجد أن الأديب الصقلى، مجبر بن محمد بن عبد العزيز، قد قام بتدريس الحديث فى الإسكندرية، وكان ممن درس عليه أبو الطاهر السلفى حيث قال: "وقرأت عليه شيئا من الحديث، سمعه على أبى الحسن الخلقى".

كذلك كان من أشهر علماء صقلية فى الحديث، الشيخ المحدث، أبو بكر عتيق بن على بن داود بن يحى، التميمى، المالكى، الصقلى، الذى يعرف بالسمنطاوى، المتوفى سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م. وكان قد درس الحديث والفقة على علماء بلده. وظل يدرس الحديث فى صقلية حتى بدأ النورمان فى السيطرة عليها، كما رحل فى البلدان فسافر إلى الحجاز، واليمن والشام وفارس وخراسان، والتقى بعلمائها وألف فى الفقه والزهد.



وممن أسهم فى دراسة الحديث النبوى، ابن عقال الصقلى الذى كتب كتابا بعنوان "فوائد ابن عقال" وكان تأليفه له فى سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م. وهو كتاب تناول فيه مؤلفه، المقارنة بين كتب الصحاح الستة، ويروى فيه عن أحد فقهاء القيروان، وهو إسماعيل بن إسحاق بن عذره.

جـ-علم الفقه:

تأثرت الدراسات الفقهية فى صقلية بما كان فى القيروان من دراسات فقهية فى البدايات الأولى، حيث وفد إليها عدد كبير من العلماء والفقهاء من القيروان بعد فتح صقلية، وكان على رأس هؤلاء القاضى القائد الفاتح أسد بن الفرات، وبعض أتباع فقيه إفريقية سحنون، كعبد الله بن حمدون الكلبى، وعبد الله بن سهل القبريانى الذى تولى قضاء صقلية، ودعامه بن محمد الفقيه، وكان قاضيا على صقلية. والفقيه أبو عمرو ميمون بن عمرو بن المغلوب الإفريقى، وهو أيضا ممن تولى قضاء صقلية.

ومن أصحاب سحنون أيضا أبو الربيع سليمان بن سالم القطان والذى يعرف بابن الكحالة، وقد وفد إلى صقلية قاضيا عليها ' وفيه قال الشيرازى: «وعنه انتشر مذهب مالك بها».

ومن الفقهاء الذين وفدوا على صقلية أبو سعيد لقمان بن يوسف الغسانى الذى ظل يدرس المدونة لمدة أربعة عشرعاما بها. ومنهم أيضا محمد بن إبراهيم بن أبى صبيح الذى درس الفقه على أصحاب سحنون، وخرج إلى صقلية، وكذلك محمد بن محمد بن خالد القيسى، وهو من أصحاب محمد سحنون، فقد تولى قضاء صقلية مدة. وكان لاستقرار البرادعى بها أثره الكبير على الدراسات الفقهية، وهو الذى ألف كتبه بها.

وليس معنى أن صقلية تأثرت بدراسات القيروان الفقهية، أنه لم يتكون لها مدرسة فقهية خاصة بها من أبنائها الصقليين، فقد ظهرت تلك المدرسة ولكن فى وفت متأخر نسبيا يرجع إلى القرن الرابع الهجرى، ومن أسباب ذلك التأخير، طول فترة الفتح للجزيرة وما تبع ذلك من أحداث سياسية.

ومن أوائل فقهاء صقلية وشيوخها أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الحصائرى، الذى كان حياً فى القرن الرابع الهجرى، وبداية الخامس، حيث درس عليه بعض فقهاء صقلية المشهورين كابن يونس الصقلى المتوفى سنة ٤٥١هـ / ١٠٤٩م وعتيق السمنطارى، وعتيق بن عبد الجبار الربعى الفرضى الصقلى، وبذلك يكون ابن الحصائرى الصقلى صاحب الدور الأكبر فى تأسيس مدرسة صقلية الفقهية المستقلة عن القيروان، حيث إن هؤلاء الذين تخرجوا على يديه أصبحوا يمثلون فيما بعد شعلة النشاط الفقهى فى صقلية.



ومن فقهاء صقلية أيضا أبو بكر بن العباس، وهو فقيه فاضل، درس على يد الفقيه على بن محمد المعافرى، المعروف بالقباسى، صاحب كتاب «الملخص»، وقد أدخل أبو بكر بن العباس كتاب «الملخص» إلى صقلية. وفى صقلية قام أبو بكر بن العباس بتدريس «المدونة»، وعنه أخذها أهل صقلية، فكان من أشهر تلاميذه ابن يونس الصقلى، وعتيق السمنطارى. وقد أثنت المصادر على أبى بكر بن العباس الصقلى ووصفته بأنه: «إمام علم الفرائض». ولذلك تذكره المصادر باسم «الفرضى»، وأنه: «فقيه صقلية وعالمها ومدرسها».

ومن فقهاء صقلية الذين أشارت إليهم المصادر إشارة عابرة، ولم توضح ما يتعلق بدراساتهم ومؤلفاتهم وخلاف ذلك، عتيق بن عبد الجبار الربعى الفرضى. فقد ورد أنه من شيوخ ابن يونس الصقلى، ومن تلاميذ ابن الحصائرى الذى سبق ذكره آنفاً.

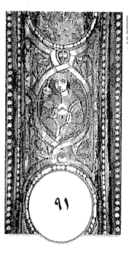
ومن أشهر فقهاء صقلية وعلمائها، ابن يونس الصقلى وهو «أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمى الصقلى»، المتوفى سنة ٤٥١هـ / ١٠٤٩م، وهو الذى أسس مع الفقيه عبد الحق الصقلى، والشيخ المحدث عتيق السمنطارى مدرسة صقلية الفقهية المستقلة.

ومع أن ابن يونس الصقلى من أشهر فقهاء صقلية، إلا أن كثيراً من المصادر لم تشر إليه، وخاصة تلك التى تتحدث عن التراجم. وقد امتدح القاضى عياض، ابن يونس الصقلى بقوله: «كان فقيهاً فرضياً حاسباً»، وقال عنه ابن فرحون: «كان فقيهاً، إماماً، عالماً، فرضياً»، وأضاف بأنه كان: «ملازماً للجهاد، موصوفاً بالنجدة»، وقال مخلوف عنه: «أنه أحد العلماء وأئمة الترجيح الأخيار».

ومن فقهاء صقلية «أبو بكر عتيق بن على بن داود بن يحيى التميمى، المالكى، الصقلى المعروف بالسمنطارى» المتوفى سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م، والذى وصفه بأنه «رجل صالح عابد»، وله مؤلفات فى الفقه والحديث وصفت بأنها: «حسان وفى غاية الترتيب والبيان». وكان قد درس بصقلية على شيوخها أمثال الحصائرى، وأبى بكر بن العباس الفرضى.

ويعتبر الفقيه السمنطارى، من مؤسسى مدرسة صقلية الفقهية، فهو من معاصرى ابن يونس وعبد الحق الصقلى.

أما الفقيه أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون السهمى القرشى الصقلى، الملقب بالإمام شيخ المالكية، المتوفى سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، فيعد من أشهر فقهاء صقلية، وعلى يديه تخرج كثير من فقهاء صقلية المتأخرين الذين أدركهم الغزو النورماندى على الجزيرة، وبعضهم استقر بها فى ظل الولاية النورماندية، والبعض الآخر خرج منها.



د- علم الكلام:

عرف ابن خلدون علم الكلام بأنه علم يتضمن الحِجَاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والردود على المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.

وممن اشتغل بعلم الكلام من أهل صقلية، «أبو الفضل العباس بن عمرو بن هارون الكنانى الوراق» المتوفى سنة ٣٧٩/ ٩٢٧م، وكان قد خرج من صقلية إلى القيروان سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م، واستقر بها سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧م، ثم خرج إلى الأندلس واتصل بولى العهد الحكم بن عبد الرحمن، وأصبح من جملة الوراقين لديه.

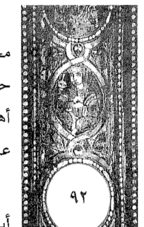
وقد وصف العباس بن عمرو بأنه «كان وسيماً حليماً، حسن الحكاية بصيراً فى الرد على أصحاب المذاهب، عالماً بالكلام، حافظاً لأخبار أبى عثمان الحداد الغسانى، فى مجلسه ومناظراته».

وقد غلبت عليه صفة علم الكلام حيث قال ابن الفرضى: «وكان هذا الفن-أى علم الكلام-أكثر علمه». وقد عاش العباس بن عمرو حتى علت سنه، وذهب بصره، وأصابه الفالج (مرض الشلل)، فقد جاوز الثمانين سنة إذ كان مولده سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م.

وقد ذكرت المصادر أن أبا بكر محمد بن سابق الصقلى المتوفى سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م، كان متكلماً أصوليا، ولأبى بكر الصقلى هذا رسالة فى معنى كلام الله تعالى والرد على المخالفين، بين فيها مذهب أهل السنة والجماعة، ومذاهب أهل البدع، والخوارج والقدرية فى صفة كلام الله سبحانه وتعالى.

وكان أبو عبد الله محمد بن أبى الفرج بن فرج المازرى المعروف بالذكى المتوفى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م، كان يميل إلى الجدل والمناظرة، وقو ل أهل الكلام، فقد وصف بأنه كان فقيهاً، حافظاً، مدركاً، نبيلاً، فهما، متقدماً فى علم المذهب واللسان، متفنناً فى علم القرآن وسائر المعارف.

وكان لكثرة رحلات أبى عبد الله محمد بن أبى الفرج أثر كبير فى ميله إلى علم الكلام، ذلك أنه دخل إلى بغداد-وهو فقيه مالكى-ولم يجد بها إلا القليل من أتباع المذهب المالكى فلما لم تحل له بها رئاسة الفقه، مال إلى صنعة النظر وحذق الجدل. وكان المازرى الذكى كثير النقاش والاعتراضات مع حدة وغلظة كما كان ينفرد بأشياء من تفسير الأخبار وغيرها، لا يتابعه أحد فيها، وسببه إعجابه بنفسه.



ومن كان يميـل إلى علم الكلام من أهل صقليـة محمـد بن مسلم بن محـمد بن أبى بكر القرشى المازرى الصـقلى المتوفى سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٦م، حيث ذكر أنه قد غلب عليه الكلام والتحقـيق، وتقدم فيه تقدما، برز فيه على أهل وقته، وصنف فيه تصانيف قـوية، وقد رحل إليه الناس للدراسة عليه فى علم الأصول والكلام، وبلغ من ذلك مرتبة كبيرة حتى أنه كان يناظر الفرق.

وقد كانت مؤلفـات محمد بن مسلم المازرى منصبـة على شرح مؤلفات أبى المعالى الجوينى إمام الحرمين، حيث شرح المازرى كتاب "البرهان" فى أصول الفقه وكتاب «الإرشاد» فى علم الكلام.

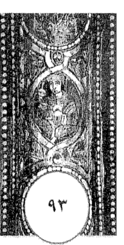
ومن فقهـاء صقلية الذين كـان لهم دور فى علم الكلام: أبو محمد المعـروف بابن صاحب الخمس، حيث وصف بأنه فقيه متكلم، إمام فى علوم الأصول، نافذ فى علم الفروع، متورع عن الإفتاء.

هـ-علم التاريخ:

كانت جهود علمـاء صقلية فى التاريخ قليلة، فكان لأبى القاسم على بن جـعفربن القطاع الصقلى كتاب بعنوان "تاريخ جزيرة صقلية" وهو مـفقود، رآه ياقوت الحموى وقال: "وقرأت بخط ابن القطاع الدفوى على ظهر كتاب تاريخ صقلية: وجدت فى بعض نسخ سيرة صقلية تعليقاً على حاشية، أن بصقلية ثلاثاً وعشرين مدينة، وثلاثة عشر حصناً، ومن الضياع مالا يعرف".

وأشار ياقوت الحموى فى «معجم الأدباء» إلى كتاب ابن القطاع الصقلى فى تاريخ صقلية، وهو يتحـدث عن مؤلفـات ابن القطاع، إلا أنه أشار إليه باسم: «ذيل تـاريخ صقلية»، وقـد أشار صاحب «كشف الظنون» إلى الكتاب المذكور، وذكره السيوطى فى «بغية الوعاة»، وصاحب «هدية العارفين»، و«معجم المؤلفين».

وألف أبو على الحسن بن يحـيى الفقيه الصـقلى، المعروف بابن الخزار كـتاباً باسم «تاريخ صقـلية»، وقـد أشار إليـه ياقوت الحـموى فى كـتابه «مـعجم البلدان» ثلاث مـرات، أولاها فى مادة "بياو"، حيث قال ياقـوت: "قال الحسن بن يحيى الفقيه صاحب تـاريخ صقلية: أحد أضلاع صقليـة الثلاثة يمـر على ساحل البـحر من المغرب إلى المشـرق.. وفى هذا الموضع من المواضع المشهـورة أو قريباً منه مدينـة البياو، وهذا الموضع هو ذنب الجـزيرة وأقلها خيراً، وكـان سجناً"، وثانيها، فى مادة "جفلوذ" حـيث قال: «الحسن بن يحيى الفقيه مؤلف تاريخ صـقلية، قلعة جلفوذ وهى مدينة حصينة بصقلية فوق جبل عالٍ على شاطئ البحر..».



وثالثها، فى مـادة "صقلية" حيث قال ياقـوت: «وذكر أبو على الحسن بن يحيى الفقيه فى تاريخ صقلية حاكياً عن القاضى ابى الفضل: أن بصقلية ثمانى عشرة مدينة إحداها بلرم..».

وذكره ياقوت مرة رابعة فى «مـعجم الأدباء»، وذلك عند ترجمته لراوية المتنبى على بن حمزة البصرى اللغوى، حيث قال ياقوت: قال أبو على الحسن بن يحيى الفقيه الصقلى ويعرف بابن الخزار فى تاريخ صقلية من تصنيفه، وفى رمضـان سنة خمس وسبعـين وثلاثمائة مات على بـن حمزة اللغوى البـصرى راوية المتنبى بصقلية وصلى عليه القاضى إبراهيم بن مالك قاضى صقلية.

أما فى مجال الجغرافيا، فلم نجد ذكراً فى المصادر لعلمـاء صقليين كتبوا فى الجغرافية إلا ما كان يتـعلق بالشريف مـحمـد بن محمـد الإدريسى الصقلى، وكـتابه "نزهة المشـتاق فى اخـتراق الآفاق"، وذلك فى فترة السيطرة النورمندية على جزيرة صقلية.

و-التصوف والزهد فى صقلية:

التصوف نزعة من النزعات، وليس فرقة مستقلة ثابتة الآراء والأهداف والتعليمات، وإن كان هناك بعض التماثل فـى الأساليب، واعتماد التـسلسل فى الطريقة، ولذلك يصح أن يكون الرجل سنياً متصوفاً، أو شيعياً متصوفاً، أو معتزلياً متصوفاً.

وليس من السهولة بمكان تعريف التصوف، ذلك لأن التصوف لـم يكن له فى يوم من الأيام طريقة منظمة محدودة من الناحية النظرية أو العملية، بل كان له فى كل عصر مفهوم خاص. على أنه تعرض لتـعريف التصوف العشـرات من علماء الصوفيـة أو ممن كتب عنهم. فالجنيـد البغدادى المتوفى سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م، عرف التصوف بتعاريف كثيرة منها: التصوف هو تصفية القلب من مراجـعة الخلق والمفارقـة من أخلاق الطبـيعة، وإمـاتة الصفات البـشرية، والابتـعاد عن الدواعى النفسانية والنزول على الصفات الروحانية، والسمو إلى علوم الحـقيقة ونصيحة الأمة كلها، والوفاء فى العمل بالحقيقة ومتابعة النبى فى الشريعة.

وقد وصل تيار الزهد والتـصوف إلى صقلية الإسـلامية من إفريقيـة، وذلك بحكم العلاقة بينهما، فمنـذ أن توجه المسلمون لفتح صقلية ظهر فـيها ميل إلى الجهاد مـصحوب بميل آخر وهو المرابطة والعبـادة، ومن أجل ذلك بنى رباط على الساحل الإفريقـى التجأ إليه الزهاد والصـالحون ليطمئنوا إلى الهدوء فى تعبدهم، وليطمئنوا على وطنهم من الغارات الخارجية.

وقد زاد تيـار الزهد والتصـوف وقوى فى صـقلية بعد قـيام الدولة الفـاطميـة فى المغرب وخضوع جزيرة صقلية لها، وما نتج عن ذلك من صراع بين الدولتين العباسية والفاطمية.

ومن مظاهر الزهد والتصوف التى دخلت إلى صقلية، من إفريقية ما مثله القضاة الذين دخلوا إليها، ومن هؤلاء أبو عمرو ميمون بن عمرو المتوفى سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م، الذى تولى قضاء صقلية فى عهد الأغالبة وقبل وصوله إليها قال لأهل سوسة التى خرج منها: «يا أهل سوسة هذا كسائى وجلبتى وخرجى فيه كتبى وهذه السوداء تخدمنى، معها كساؤها وجبتها، بهذا خرجت، وانظروا بأى شيء أرجع»، وعند وصوله إلى صقليه قيل له: هذه الدار دار القضاء تنزل فيها فقال: «هذه دار عظماء أى شيء أعمل فيه»، واستمر حاله كذلك حتى نزل فى حجرة، وكانت خادمته تغزل وتبيع غزلها وتطعمه، وإذا قرع أحد الباب، خرجت السوداء، وقالت للناس الساعة يخرج إليكم القاضى، وأقام على ذلك سنين إلى أن مرض ودخل الناس لزيارته فوجدوا تحته حصيرا وعند رأسه وسادة محشوة بالتبن.

ثم خرج أبو عمرو ميمون إلى القيروان وهو عليل، فلما وصل سوسة قال لهم: يا أهل سوسة كما خرجنا رجعنا، هذا كسائى وجبتى وخرجى فيه كتبى، وهذه السوداء كذلك، والله ما تلبست بشيء من دنياكم حتى انصرفت".

وكان للزهد والتصوف فى صقلية سمات خاصة، من أهمها تأسيس التصوف على الكتاب والسنة، وهذا من آثار التزامهم بمذهب الإمام مالك رحمه الله، الذى التزم بالسنة أتم الالتزام، وبذلك قام التصوف فى صقلية على أساس من السلامة الفقهية أنها كانت منصبة على التمسك بالمذهب المالكى، وشرح مصادره والزيادة عليها واختصارها وخلاف ذلك.

ومن سماته أيضاً أن ظهرت فيه أثار الحياة الاجتماعية المضطربة آنذاك، نتيجة لكثرة الحروب، وعدم الاستقرار الاجتماعى، فى فترة الانتقال من التبعية للأغالبة الذين يدينون بالولاء للعباسيين السنيين، إلى تبعية الدولة الفاطمية الشيعية. فكان التصوف يمثل ما بداخل النفوس من سوء الحال ورد فعل الحياة الاجتماعية، ومحاولة جادة للإصلاح الاجتماعى بدءاً من إصلاح الفرد دينيا وخلقيا، وقد صور لنا ذلك كله أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الصقلى المتوفى سنة ٣٨٠/ ٩٩٠م، فى كتابه «الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار».

كما خضع التصوف فى صقلية فى نشأته لمؤثرين قويين، أولهما: الاتصال بالمشرق عن طريق الحج إلى مكة، ومشاهدة الصقليين للعبّاد والمنقطعين حول البيت الحرام، أما المؤثر الآخر وهو الأقوى فهى الحياة الاجتماعية، وما يظهر فيها من الفساد وعدم الاقتران بين العلم والعمل وطلب بعض الناس للدنيا بطريقة الزهادة والنسك، فكان التصوف بذلك فى واقعه رفضا لذلك فى محاولة لإصلاح الفرد من أجل أن تصلح الجماعة.

وممن ذكـرتهم المصادر من زهاد صـقلية، الذين ظهـروا فى نهاية الـقرن الثالث الهجرى وبداية الرابع، أبو الحسن الصقلى الجزيرى المتوفى سنة ٣٢٩هـ / ٩٣١م.

فقد ورد أنه كان من خيار الناس وأنه كـان صامتاً لا ينطق إلا بذكر الله عز وجل، أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصـلاة تأوه، واجتر نفسه وتواجد و قال: واهاب عمرى فى خسارة.

وقال أبو سليمـان ربيع القطان: سمعته-أى أبو الحسن الصقلى-يقول: «والله الذى لا إله إلا هو ما شىء فى وقـتى هذا أقر لعينى من القدوم على الله تـعالى؛ لأنى قد تحقق ظنى به، فقلت له: سررتنى والله».

وكان أبو الحسن الصقلى يروى فى مجلسـه حكايات عن الزهاد فى صقلية الذين التقى بهم ورآهم، مما له علاقة مـباشرة بحيـاة هؤلاء الأشخاص وانقطاعهم للعبـادة، وهو بذلك كان يرغب الناس فى مثل تـلك الحياة، وأنهـا تمثل تغلباً على الشيطان وتحدياً له، فكان مما رواه فى مـجلسه ونقله عنه أبو سليمان ربيع القطان قـوله: «كان عندنا يا أبا سليمان بثغر صـقلية رجل يقال له أبو على الطنجى، وكان من الكدادين عمره كله، وكان من أهل الشـغل والذكر، وكان يظهر له عدوه إبليس فى هيـئة إنسـان، قال: فكان يقـول له العدو(أى إبلـيس): أنضحت قلبى بكدك، فـوالله لأنضـحن قـلبك، أو تكف عـمـا أنت فـيـه، قـال: فيـقـــول أبو على: إليك عنى يا عـدو الله، والله لا زلت هكذا إن شاء الله تعالى أبداً. فـبينما هو ذات يوم راقد على سدة إذ قلبه عدو الله من فـوقها، فانجرح له مـوضع السجـود، فلم يزل يتـورم وينتشـر حتى أخـذ الوجه، فكان يأتيه العدو فـيقول له: أقصر ويزول عنك ما تجـد، فيقـول: اذهب يا عدو الله والله لا أقـصر أو أموت، فكانت تلك العلة سبب موته».



راسم الطبيب ديسقريدس مع أحد تلاميذه من كتاب خواص العقاقير

ومن زهاد صقليـة ومتصوفـيها سعيـد بن سلام الصـقلـى، وهو من أهل جـرجنت، وقـــد رحل إلى الحـجاز، وحظى باحـترام كـبـير، ثم توجـه إلى بلاد فـارس، وتوفى بهـا سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣م، ووصف بأنه: «لم ير مثلـه فى علو الحال وصونْ الوقت وصـحة الحكم بالفراسة».

ومن أقدم زهاد صقلية ومتصوفيها أبو بكر محمد بن إبراهيم بن موسى التميمى، المصرى الصقلى، والذى كتب الحديث وسافر فى طلبه إلى العراق، وحدث بأحاديث يسيرة، كما كان يحضر مجالس الجنيد الصوفى المتوفى سنة ٣٩٧هـ/ ٩٠٩م.

وأشارت المصادر إلى أن أبا القاسم عتيق بن محمد الحاكم التميمى الصقلى المتوفى سنة ٥١٣هـ / ١١١٩ م، كان من زهاد صقلية، ووصف بأنه: شيخ صالح زاهد، معرض عن الدنيا مقبل على الآخرة، وكان من عباد الله الصالحين، قال السمعانى: «ما أظنه حدث بشىء غير أنى رأيت الألسنة متفقة على الثناء عليه ووصفه بالخير والصلاح».

أما خير من يمثل التصوف فى صقلية فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلى المالكى، الملقب بعماد الدين الصوفى، المعروف بإمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة المتوفى ٣٨٠هـ / ٩٩٠م.

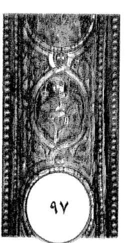
ز-العلوم الطبيعية:

فى مجال الطب، أشارت المصادر إلى عدد من الأطباء الصقليين، منهم أبو عبد الله محمد بن الحسين الطوبى الصقلى، النحوى الذى وصف بأنه "أربى فى النحو على نفطوية، وفى الطب على ابن ماسويه". وقد وصفه ابن القطاع بقوله:

أيها الأستاذ فى الطب	وإعراب الكلام
لك فى النحو فى إسماعيل	لا يساميه مسام
ثم فى الطب علاج	دافع الداء العقام

ولم يذكر لابن الطوبى مؤلف معين فى مجال الطب، ولم تحدد له فيه جهود.

ومن الأطباء الصقليين، طبيب يدعى بأبى عبد الله الصقلى، كان له دور بارز فى ترجمة كتاب "ديسقوريدس فى العقاقير من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية. فقد كان يتكلم اليونانية ويعرف مسميات وصفات الأدوية. وذلك أن الناصر عبد الرحمن بن محمد ، صاحب الأندلس أهدى إليه كتاب ديسقوريدس من الإمبراطور البيزنطى "أرمانيوس(٩٠٥-٩٥٩) فى سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م، وكان الكتاب مكتوبا بالإغريقى. وكان فى قرطبة فى تلك الأيام من الأطباء الذين يعرفون اللغة اليونانية عدد كبير ومنهم أبو عبد الله الصقلى الذى اشترك مع مجموعة الأطباء تلك فى ترجمة الكتاب المذكور.



قال ابن جلجل عن مجموعة الأطباء تلك: «وكان هؤلاء النفر كلهم فى زمان واحد، وصحبتهم فى أيام المستنصر الحكم ... فصح ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينه قرطبة، ما أزال الشك عن القلوب، وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها، وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذى لا بال به، ولا خطر منه، وذلك يكون فى مثل عشرة أدوية».

وأشارت المصادر إلى أن أبا الحسن على بن إبراهيم بن على النحوى، المعروف بابن المعلم الصقلى، كان قد قرأ الطب، وتعبير الرؤيا، هذا إلى جانب بروزه فى علم النحو، إلا أن المصادر لم تذكر لنا من جهوده فى مجال علم الطب شيئا يذكر.

وتضمنت بعض قصائد ابن حمديس الصقلى، إشارة إلى أحد أطباء صقلية، وذلك هو أبو الحسن على بن حسين بن أبى الدار الصقلى، وهو ابن عمة ابن حمديس، وزوج أخته، فقد كان يصفه ابن حمديس بأنه «بقراط دونة فى الطب والحكمة».

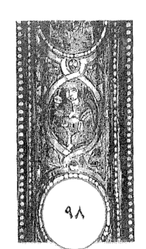
وتشير المصادر إلى أن القائد ابن الثمنة، قد غضب على زوجته وجرى بينها وبينه خصام وهو فى حالة سكر، فأمر بفصدها، وتركها لتموت، فسمع به إبراهيم بذلك، فغضب، وأسرع فجلب لها الأطباء فعالجوها.

ويستفاد من هذا الخبر، أن صقلية كان بها أطباء، وإن لم تشر المصادر إليهم. أضف إلى ذلك أن الخبر بصيغة الجمع، وهذا فى مدينة واحدة من مدن صقلية. وقد يدل الخبر على أن الذين حضروا لعلاج امرأة ابن الثمن إنما هم مجموعة من أطباء مدينة واحدة، وليس جميع أطباء تلك المدينة، مما يوحى ذلك كله بوجود نشاط طبى كبير فى جزيرة صقلية آنذاك.

وكان الإمام أبو عبد الله المازرى صاحب كتاب «المعلم بفوائد مسلم» من علماء صقلية الذين لهم دراية بالطب، فقد ذكرت المصادر أنه إلى جانب نشاطه فى الحديث والفقه والأصول، كان من أهل العلم بالطب، وإليه كان يفزع فى الفتوى فى الطب فى بلده، كما يفزع إليه فى الفتوى فى الفقه.

وتشير المصادر إلى حادثة حدثت للإمام أبى عد الله المازرى، بدأعلى أثرها فى تعلم الطب، والاطلاع على علومه، فذكرت أنه مرض فكان يطببه يهودى، فقال له اليهودى: يا إمام أنتم تعلمتم علوم دينكم، وتركتم علوم أبدانكم وأى قربة أجدها فى دينى مثل أن أفقد المسلمين عالم مثلكم فى هذا القطر فأخذت هذه المقالة فى نفس المازرى مأخذها، فمن حينئذ نظر فى الطب.

وعلى الرغم من أن كلام الطبيب اليهودى يتنافى وطبيعة الصناعة وأخلاقها فإن ذلك كان دافعاً قوياً للإمام أبى عبد الله المازرى فى دراسة الطب، والبراعة فيه، وامتلاك زمامه.



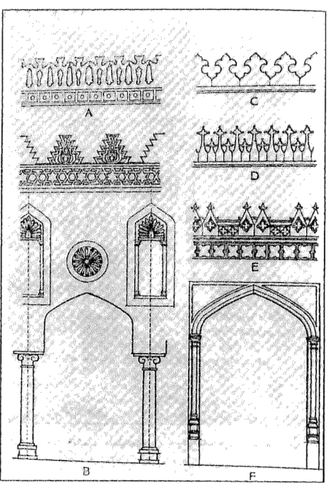
أثر صقلية الإسلامية على أوروبا

مرت أوروبا بمرحلة تاريخية مظلمة بدأت منذ سقوط الإمبراطورية ا لرومانية الغربية سنة ٤٧٦م، وما تبع ذلك من انكماش الحضارة الرومانية تدريجياً من إيطاليا وإسبانيا وغاليا "فرنسا" وإنجلترا، وغيرها من البلاد التى خضعت للرومان أيام سطوتهم، وذبلت المدن الرومانية، وأقفلت المدارس أبوابها، وانتشار الجهل، ولم يبق أثر للحضارة والمعرفة فى غرب أوربا، واتصف ما بقى من التعليم بطابق دينى، حيث اقتصر على من يطلق عليهم "رجال الدين".

وإذا كان قد ظهر فى الغرب الأوروبى بريق حضارة فى أواخر القرن الثامن الميلادى وأوائل التاسع، فإنها سرعان ما انطفأت وذبلت، وذلك البريق كان قد ظهر بعد تتويج شرلمان فى سنة ١٢٤هـ / ٨٠٠م، إمبراطورا لعرش غاليا (فرنسا)، وعرف باسم "النهضة الكارولنجية" وهى نهضة اقتصرت على إحياء جانب من التراث القديم، دون محاولة الابتكار والتجديد، وأمام هجمات الفيكنج، تفككت تلك الإمبراطورية.

ودمر ما تبقى من مراكز الحضارة كالمدن والأديرة والكاتدرائيات، وعادت الظلمة من جديد إلى أوروبا، واستمرت حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى.

وعندما أفاق الغرب من سباته وجد نفسه أمام حضارة إسلامية شامخة البناء فلم تترك أديباً ولا عالماً ولا فناً إلا وأسهمت فيه بقسط وافر. واتجه طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء أوروبا إلى مراكز الحضارة الإسلامية لينهلوا من معينها الصافى، ويترجموا كل ما استطاعوا ترجمته من مؤلفات المسلمين. وكل ذلك أدى فى النهاية إلى بزوغ حضارة شاملة فى أوروبا أطلق عليها فى التاريخ اسم «النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر» أو اسم «النهضة الوسطية» فكانت أطول عمراً وأكثر استمراراً وأوسع أفقاً وأشد أثراً مما سبقها من حضارات وبذلك قامت وتعدت مرحلة المحاكاة إلى الابتكار والتجديد، وأن حضارة أوروبا الحديثة قامت على أساس واضح من المدنية الإسلامية بجميع فروعها.



(**لوحة 705**) نماذج معمارية للمقارنة.

A ـ مسجد ابن طولون بالقاهرة بمصر (٨٦٨م).

B ـ عقد بالجامع الأزهر بالقاهرة بمصر (٩٧٠م).

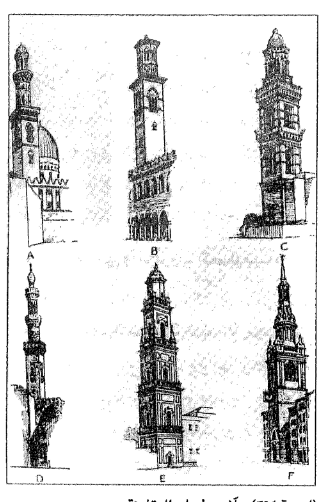
C ـ شرافات بمسجد زين الدين يوسف بالقاهرة بمصر (١٢٩٨).

D ـ شرافات بقصر كادورو بالبندقية بإيطاليا (١٤٣١م).

E ـ شرافات في كنيسة كرومر بنورفولك (القرن ١٥م).

F ـ عقد تيودوري في بهو كنيسة المسيح باكسفورد بانجلترا (القرن ١٦م).

(عن تراث الإسلام)



(**لوحة 706**) مآذن وابراج للمقارنة.

A ـ مئذنة بمدرسة سنجر الجولي بالقاهرة (١٣٠٣ ـ ١٣٠٤م).

B ـ برج دلكومينو في ڤيرونا بإيطاليا (١١٧٢م) وبرج الناقوس (١٣٧٢م).

C ـ في قبة سبوليتو بإيطاليا (١٣٩٧م).

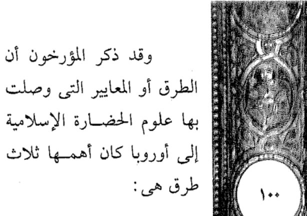
D ـ مئذنة ضريح برقوق بالقاهرة بمصر (١٤٠٠ ـ ١٤١٠م).

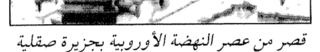
E ـ في قبة ليكي بجنوب إيطاليا (١٦٦١ ـ ١٦٨٢م).

F ـ برج كنيسة سانت ماري لوبو بلندن (٦٧١ ـ ١٦٨٤م).

(عن تراث الإسلام).







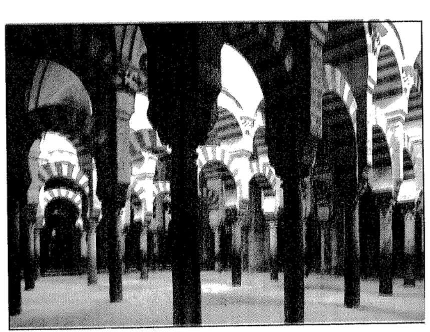
قصر من عصر النهضة الأوروبية بجزيرة صقلية

وقد ذكر المؤرخون أن الطرق أو المعايير التى وصلت بها علوم الحضارة الإسلامية إلى أوروبا كان أهمها ثلاث طرق هى:

١-الشرق الأدنى والحروب الصليبية:

فقد كان لبلاد الشام والشرق الأدنى شأن هام فى نقل بعض مظاهر الحضارة الإسلامية إلى أوربا فى العصور الوسطى. ويرتبط ببلاد الشام الحروب الصليبية وما نتج عنها من صلات سياسية وحضارية وتجارية بين الشرق الإسلامى، والغرب المسيحى. حيث اكتسب الصليبيون بعض معارفهم نتيجة لتلك الصلات، فانتقلت إليهم بعض الصناعات، والعقاقير، وفن العمارة والهندسة، وبناء الحصون والقلاع، كما انتقلت إليهم كثير من التقاليد الإسلامية فى الملبس والمأكل، ودخلت كثير من ألفاظ اللغة العربية إليهم.

٢-الأندلس:



المسجد الكبير بقرطبة - الأندلس

يعد هذا المعبر أهم معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا، وأشدها تأثيراً فى تغيير وجه أوروبا المظلم، فقد عاشت الأندلس عصوراً مزدهرة علميا فى عصور الخلافة، وحتى فى عصور ملوك الطوائف؛ ونشطت المدن الزاهرة فيها بالثقافة الإسلامية كقرطبة مثلاً، وبعد سقوط طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ /



١٠٨٥م فى أيدى المسيحيين ازداد تدفق طلاب العلم من مختلف بلدان غرب أوربا على إسبانيا الإسلامية للاستزادة من الدراسات الإسلامية، فنشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطاً منقطع النظير، فترجم إلى اللاتينية كثير من مؤلفات المسلمين، كما ترجم إلى العربية كثير من مؤلفات اليونانيين.

٣-صقلية كمعبر للحضارة الإسلامية:

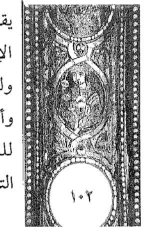
عنقاء (طائر خرافى) من البرونز- مبخرة بأسلوب فاطمى وجد فى جنوب إيطاليا

وهى إحدى معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، ونحن هنا لسنا فى حاجة إلى أن نعيد بعض ما ذكرنا عن تطور المدنية الإسلامية فى جزيرة صقلية من الناحية الاقتصادية، كالصناعة والزراعة مثلاً، أو الناحية الثقافية. فالحضارة الإسلامية فى جزيرة صقلية لم تنته بانتهاء السيادة الإسلامية، بل استمرت فى عهد حكامها النورمان. ونتج عن ذلك كله أن وصلت كثير من العلوم والمعارف الإسلامية إلى جنوب إيطاليا بصفة خاصة وغرب أوروبا بصفة عامة، عن طريق صقلية.

أما عن أثر الحياة العلمية فى صقلية الإسلامية على أوروبا، فلقد كان واضحا فى عدة جوانب، وكان منها أن اللغة العربية بقيت بعد سقوط صقلية تشارك غيرها من اللغات فى الحياة اليومية والدراسات العلمية بالجزيرة، حتى أن بلاط حكام صقلية النورمان أصبح يعج بالمتكلمين بالعربية من علماء وخاصة ووزراء وغيرهم. بل زاد الأمر على ذلك فكان الحكام النورمان يتكلمون العربية، ويصدرون بها مراسيمهم. ونتج عن ذلك أن كثيرا من الألفاظ العربية لازالت موجودة فى اللغتين الصقلية والإيطالية، كما لا تزال عدة أماكن بصقلية تحمل أسماء عربية، ولا سيما أسماء القلاع والمراسى والشوارع.



خريطة الإدريسى



يقول لويجي رينالدى: «أن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى لغتنا الإيطالية التى تفوق الحصر، دخلت فى اللغة لا بطريقة الاستعمار العربى، ولكن بطريق المدنية التى كثيرا ما تؤلف وتؤاخى بين مظاهر الحياة المختلفة». وأضاف قائلا: «وإن وجود هذه الكلمات فى اللغة الإيطالية ليشهد بما كان للمدنية العربية من أثر عظيم في العالم المسيحى، وبما كان من العلاقات التجارية بين بلادنا وبين المسلمين فى الشرق وافريقيا الشمالية وصقلية».

وفى مجال الترجمة ساهمت صقلية بنصيب وافر فى ذلك، مما كان له أثره المباشر على أوربا. فقد ترجم بها فى سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م كتاب بطليموس السكندرى فى المرئيات، وفى سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م ترجمت بعض كتب بطليموس الأخرى فى الفلك والرياضيات.

واشتهر من المترجمين فى القرن الثالث عشر الميلادى فرج بن سالم اليهودى، وهو من أصل صقلى وطلب العلم فى سالرنو حيث ترجم كثيرا من كتب العرب إلى اللاتينية وفى مجال الجغرافيا كان لصقلية أثرها الكبير على أوربا ممثلة فى الشريف الإدريسى صاحب كتاب "نزهة المشتاق" الذى قسم العالم المعروف آنذاك من جهة الطول، فجعل كل إقليم مقسما إلى عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق، ثم جعل لكل قسم من هذه الأقسام خريطة خاصة، عدا الخريطة العالمية الجامعة.

كما صنع الإدريسى للملك النورماندى، روجر الثانى خريطة كروية للأرض من الفضة، وقد طبع كتابه مع خرائطه السبعين فى روما سنة ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م، وترجم إلى اللاتينية سنة ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م من قبل جبرائيل الصهيونى، ويوحنا الحصرونى. كما طبع أيضا فى لندن ومدريد وبون. ويعتبر كتاب الإدريسى "نزهة المشتاق" أفضل مؤلف تلتقى فيه الجغرافيا القديمة بالجغرافيا الحديثة، بمعلومات الإدريسى عن نهر النيجر، وعن السودان ومنابع النيل بصورة دقيقة، لدرجة تدعو إلى الإعجاب، ولذلك لم يكن غريبا أن يطلق عليه اسم «استرابون العرب». وأن يقال عن كتابه «أنه لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له، وأن ثمة بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليلَ المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتصلة بها».

ولقد ظل الأوروبيون يعتمدون على كتاب الإدريسى اعتمادا كبيرا لمدة ثلاثة قرون متوالية، كما أن الأوروبيين أخذوا عن العرب كثيرا من المصطلحات البحرية عن جغرافية الإدريسى.

وقد تميز كتاب الإدريسى عن غيره من كتب الجغرافيين المسلمين، بأنه عالمى الطابع، إذ شمل مناطق العالم القديم المتباينة بأقاليمها المختلفة، وأجزائها العديدة، وتضمن وصفا لمناطق كان



هو الرائد فيها بين الجغرافيين المسلمين، وعليه اعتمد اللاحقون فيما كتبوا. وبذلك يعتبر أعظم موسوعة جغرافية خرجت من صقلية فى القرون الوسطى وأوفى كتاب جغرافى تركه لنا المسلمون، باشتماله على ما وصل إليه علم الأقدمين، إضافة إلى ما اطّلع عليه الإدريسى نفسه، أو ما وصل إليه من دراسات ومشاهدات وخبرات وما رواه السياح.

ولقد استفاد الغرب من كتاب الإدريسى وغيره من الكتب الجغرافية، وعملوا على تقليد المسلمين فى رحلاتهم الجغرافية، وشجعهم على ذلك استعمال المسلمين للبوصلة البحرية فى الملاحة. ذلك أن الإدريسى أظهر فى بحث المواد التى اتصلت به وقدرها وتحرى الحقيقة فيها، رجاحة عقل، ورحابة صدر، وكشف عن فهم لبعض القضايا الهامة كإدراكه لكروية الأرض.

وقد جاء فى دائرة المعارف الفرنسية عن كتاب الإدريسى انه: "أوفى كتاب جغرافى تركه لنا العرب، وأن ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى. ويذكر روم لاندو: "أن ما يعتقده كثير من الغربيين اليوم بأن ما يتعلق بكروية الأرض، بعض الأمور الجغرافية كاكتشاف منابع النيل، بأنها من اكتشاف الغرب، وذلك ليس بصحيح. فلقد سبقهم إلى ذلك الإدريسى فى العصور الوسطى".

ويقول سيديو عن كتاب الإدريسى "نزهة المشتاق": "على مدى ثلاثمائة وخمسين عاما، ظل رسامو الخرائط الأوربيون لا يفعلون شيئا سوى إعادة نسخ هذا الكتاب مع بعض التغييرات الطفيفة".

أما المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه" فتقول عن الإدريسى وكتابه "نزهة المشتاق": "لم يعرف الناس فى أوروبا لزمن طويل الجغرافية المؤسسة على المراقبة والتجربة فلم تكن خرائط الأديرة ترسم الأرض طبقا لفهمهم للإنجيل إلا على أنها قطعة من الأرض يحيط بها بحر عالمى، وفى وسطها تقع الجنة. ولقد كان الجغرافى العربى الإدريسى هو الذى مثل فى قصر ملوك صقلية دور المعلم للغرب، وليس بطليموس كما يدعى بعضهم.

وبقيت خريطة الإدريسى ثلاثة قرون تسد الفراغ فى الغرب، وتخدم محاولاتهم الخاصة فى هذا المجال كنموذج يهتدى به". ويقول ستانوود كب الأمريكى: "ويمكن للمرء أن يقرر فى اطمئنان أنه لولا هذه الخبرات الملاحية التى ورثها كولمبس عن العرب، ولولا مفهوم كروية الأرض لما أقدم كولمبس قط على المخاطرة فى خوض الأطلنطى أو خطر له مجرد تصور فكرة هذه الرحلة.

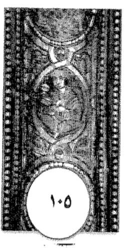


ونظرا لأهمية الكتاب لدى الغرب الأوروبى , فقد توافد على تحقيقه حديثا أكثر من ثلاثين مستشرقا لدراسته وتحقيـقه، واظهاره فى مجلدين كبيرين، وشاركهم فى هذا العمل الكبير بعض علماء المسلمين، وهذا فى حد ذاته يدل على أهمية الكتاب العلمية.

أما فى مجـال صناعة الورق، فقد عرف الأوروبيـون تلك الصناعة عن طريق مسلمى صقليـة، الذين كانوا يصنعونه من "البردى" الذى كان مـتوفرا فى صـقليـة، واشـتـهـر بجودته، كـما ذكـر ابن حوقل. بينمـا لم تعرف إيـطاليا صناعـة الـورق إلا فى سـنة ٥٤٩هــ / ١١٥٤م، ولـم تعـرفه ألمانيـا إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى. ومعنى ذلك أن غرب أوروبا، لم يعـرف صناعــة الورق إلا بعـد ظهورها بصـقلية بفـترة طويلة، وعن طريق صـقلية أيضـاً، وقد سـاعـد انـتـشـار صناعـة الورق وشـهرة صـقليـة به على كثـرة انتبـساخ الكتـب المشـهـورة فى المشرق والمغرب.


رسم من كتاب خواص العقاقير على ورقة البردى الذى نشره المسلمون فى أنحاء العالم

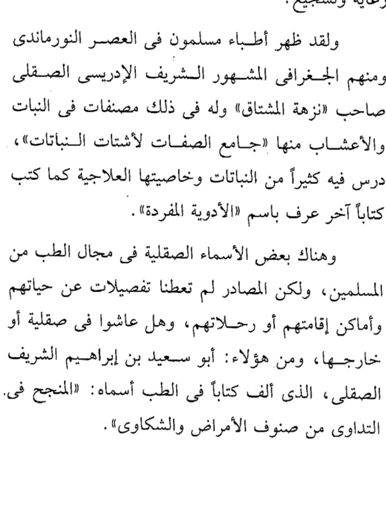
أما التاريخ الطبيعى، فإنه عُرف أول ما عـرف فى صقلية، حـيث عـهـد فـريدريك إلى مـترجـمـه "ثيـودور" ان ينقل له رسـالة عربيـة عن تربية البـزاه، وانضـمـت هذه الـتـرجـمـة إلى ترجمة أخرى فارسية ليكونا أساس الكتـاب الذى وضعه فردريك نفسه فى ترويض البزاه، وبذلك يكون هذا التأليف أول ما عرف فى مجال دراسة التاريخ الطبيعى.



أما فى مجال الطب، فـقد انتقل نظام البيمارستانات (المستشفيات) إلى صقلية فى عهد حكامها النورمان، ثم أنشأوا بعد ذلك مدرسة للطب فى بالرمو فى عهد فـردريك الثانى، ثم انتقل ذلك النظام إلى غرب أوربـا وتطور ليصبح فيما بعد جامعة الطب فى سالرنو.

واذا كانت مـدرسة سالرنو قد أصـبحت أول جامـعة للطب فى أوروبا، فإن الفضل يرجع إلى الطب الإسـلامى فيما أحرزته تلك المدرسـة من شهرة. ذلك أن النورمان عندما اسـتولوا على صقلية وجنوب ايطاليـا-فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى-أحـاطوا مدرسة سالرنو بما أحاطوا به بقية المؤسسـات والدراسات العربية من رعاية وتشجيع.





ولقد ظهر أطـباء مسلمون فى العصـر النورماندى ومنهم الجـغرافى المشـهور الـشريف الإدريسى الصـقلى صاحب «نزهة المشتاق» وله فى ذلك مصنفات فى النبات والأعشـاب منها «جـامع الصفـات لأشتات الـنباتات»، درس فيه كثيراً من النباتات وخاصيتها العلاجية كما كتب كتاباً آخر عرف باسم «الأدوية المفردة».

وهناك بعض الأسماء الصقلية فى مجال الطب من المسلمين، ولكن المصادر لم تعطنا تفصيلات عن حياتهم وأماكن إقامتهم أو رحـلاتهم، وهل عاشوا فى صقلية أو خارجـها، ومن هؤلاء: أبو سـعيد بن إبراهـيم الشريف الصقلى، الذى ألف كتاباً فى الطب أسماه: «المنجح فى التداوى من صنوف الأمراض والشكاوى».

الرازى أول من شرح القرود وجرب عليهم الأدوية وهذه النافذة الزجاجية التى حملت صورته من إحدى جامعات فرنسا



كما ظهر طبيب صقلى آخر فى فترة صقلية غير الإسلامية وهو أحمد بن عـبد السـلام الصقلى وله كـتاب فـى الطب عرف باسم «كـتاب الأطبـاء فى الأمراض من الفـرق إلى القدم»، ومما جاء فيـه قوله: «فإنى استـخرت الله إن أكتب هذا التـصنيف وهو مشتـمل على مداواة الأمراض من الفـرق إلى القدم بأدوية بسيطة قريبة لأن التركيب فى الأدوية صـعب، وقل فيه التحقيق. . وقد جعلته عشرين باباً وقد أبنته فى هذه الفهرست ليسهل على متناوليه:

الباب الأول: فى الأدوية المفردة النافعة من الصداع، والثانى فى أمراض العين، والثالث فى أمراض الأذن، والرابع: فى أمراض الأنف. والخامس: فى الفم، والسادس: فى أمراض الحلق والعنق. والسابع فى أمراض الكبد والمعدة، والثامن: الأمعاء، والتاسع: المـقعدة وأدرامـها، العـاشر: الكلى، الحادى عـشر: المثـانة، الثانى عـشر: فى الأدوية المخصـوصة بأعـضاء التناسل من الـذكران، الثالـث عشر: فى أمـراض الرحم، الرابع عـشر فى المفاصل، الخامس عـشر: فى الجراحات، السـادس عشر: فى الأدوية، السابع عشـر: المخصوص بالرئة، الثامن عشر: فيما ينفع فى الحميات وفساد الهواء، التاسع عشر: فيما ينفع من الأدوية فى السموم ولسع الهوام. العشرون: فيما يعم نفعه البدن وفى خواص الأشياء، وهو فصلان، الأول فيما يعم نفعه للبدن، والثانى: فى خواص الأشياء التى يفعل بعضها فى بعض أفعال الخاصية.

وظهر طبـيب صقلى آخر واسمـه الطبيب الحاج عـبد السلام بن إبراهيم الشـريف الصقلى المتوفى بتونس سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م، ولـم تشر المصادر إلى جهوده فى الطب. كـما نبغ طبيب صقلى آخـر واسمه محمـد الشريف الصقلى، والذى ألف كـتابين الأول فى الطب سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٩٥م، والثانى فى الصـيدلة، وذكر به الخـصائص الضرورية لكل من يريد تعـاطى مهنة الطب فقال: «يجب أن يكون ذا ثقة، وشديد الحذر يخاف الله ثم عباده».

ومن توصياته فى الطب لأبنائه وتلاميذه قوله: «اعلم يا بنى أن من يتعاطى الصناعة عليه أن يتـعلق بمبدأ راسخ ثابت لن يفـارق ذهنه، وهو أن يريد لغـيره ما يـريد لنفسـه، فلا تحقـرن أدنى الأخطاء، فالأمطار الهاطلة تبدأ قطرة قطرة. وكـذلك فاعلم يا بنى أنه ليس هناك جريمة أشنع من غش الناس واستـغلال ثرواتهم وأمـوالهم وخاصـة البائسين الـذين يتألمون والذين يعـوزهم العقل والقوة، فالبائس المسكين يحتمى بعلمك لتزيل عنه آلامه، وتخط له وصفة الدواء، فيضع كل آماله فى تلك الورقة معتـقدا أن ما تحتوى عليه سيـشفيه بعون الله، فالصيـدلى يفوض أمره لك ويسلم الأدوية، ولكن كم يكن تصرفك خاطئا أن تصرفت بدون دراية، وكم تكن مسئوليتك عظيمة، فلو كنت مكان المريض أكنت تحب أن تعامل هذه المعاملة، فيلعب بصحتك وتختلس أموالك. صدقنى يا بنى، وكن فطنا وحـذرا؛ لأن غلطاتك تصبح من أخطر الأخطاء أمام الـله، وإن هذه الكلمات



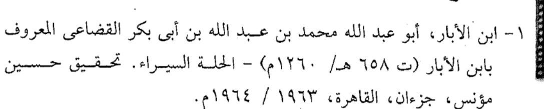
كافية لكل رجل فلا أضيف عليها شيئا فلتكن نصب عينيك كل يوم من الصباح إلى المساء فلا تنساها أبدا». وهو بذلك يرسم القوانين الطبية فى مجال أدب الطب، لأطباء أوربا فى نهاية القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى.

ومن التأثيرات الإسلامية على الدراسات الطبية فى صقلية، أن اللغة العربية، كانت إحدى اللغات التى تستخدم فى التدريس فى مدرسة سالرنو الطبية. كما أن الأطباء فى صقلية مارسوا التشريح، قال جول لابوم: «كان الأطباء العرب فى القرن العاشر يعلمون تشريح الجثث فى قاعات مدرجة خصصت لذلك فى جامعة صقلية». وعلم التشريح يعتبر ضرورة للارتقاء بعلم الطب، ولم يتقدم العرب فى هذا المجال إلا نتيجة لمؤثرات إسلامية، ذلك أن أطباء المسلمين مارسوا تشريح القردة، بينما لم يبدأ الأوروبيون بالتشريح إلا فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى، عندما قاموا بتشريح الخنازير.

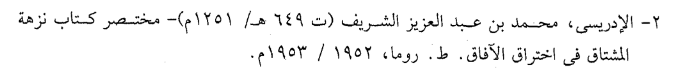
تلك هى بعض تأثيرات صقلية على أوروبا فى الناحية العلمية، وليس ذلك كل شىء. وذلك يرجع إلى أن صقلية عندما كانت معبرا من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا لم يقتصر تأثيرها على أوروبا فيما أنتجه الصقليون أنفسهم، بل تعدى ذلك إلى غيره من إنتاج البلدان الإسلامية الأخرى. فالمهم أن صقلية كانت معبرا إلى أوروبا وليس المهم أن تكون صقلية بلد إنتاجه.



أ- المصادر:



١- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م) - الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس، جزءان، القاهرة، ١٩٦٣ / ١٩٦٤م.



٢- الإدريسى، محمد بن عبد العزيز الشريف (ت ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١م)- مختصر كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق. ط. روما، ١٩٥٢ / ١٩٥٣م.

٣- البلاذرى، أحمد بن يحى بن جابر «المعروف بالبلاذرى» (ت٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م)- كتاب فتوح البلدان. نشره ووضع ملاحقه وفهارسه الدكتور صلاح الدين المنجد، نشر النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦ / ١٩٥٧م.

٤- ابن أبى دينار، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى المعروف «بابن أبى دينار»- كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس. مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط.أولى، ١٢٨٦ هـ.

٥- ابن رسته، أبى على أحمد بن عمر- كتاب الأعلاق النفيسة (ومعه كتاب البلدان لليعقوبى من ص ٢٣٢ - ٣٧٣)، نشر دى غويه، بريل، ليدن، ط.١٨٩١م و ١٩٦٧م.

٦- المقدسى، شمس الدين أبو عبد الله البشارى (ت٣٨٧هـ)- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. نشر دى غويه ضمن المجموعة الجغرافية العربية (جـ٣ من المجموعة)، بريل، ليدن، ١٨٧٦م و ١٩٦٧م.

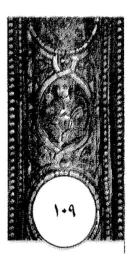
ب- الكتب الحديثة العربية والمعربة:

٧- إبراهيم أحمد العدوى «دكتور»- الأمويون والبيزنطيون «البحر المتوسط بحيرة إسلامية». ط. ثانية، القاهرة، ١٩٦٣م.

٨- المسلمون والجرمان «الإسلام فى غرب البحر المتوسط». ١٩٦٠م.

٩- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية. القاهرة، ١٩٥١م.

١٠- الأساطيل العربية فى البحر المتوسط. القاهرة، ١٩٥٧م.



١١- إحسان عباس- العرب فى صقلية. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٢- أرشيبالد، لويس- القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط. ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، القاهرة، مؤسسة فرانكلين، ١٩٥٦م.

١٣- أسد رستم- الروم «فى سياستهم وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب». دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٥ (جزءان فى مجلدين).

١٤- إسماعيل سرهنك- حقائق الأخبار عن دول البحار. بولاق، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٢و ١٣١٤و ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م (ثلاثة أجزاء).

١٥- أمارى، ميخائيل Amari, Michael- المكتبة العربية الصقلية. «نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع» حققها وجمعها المستشرق ميخائيل أمارى، ط. معادة بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد، (عن طبعة ليبسك)، ١٨٥٧م.

١٦- حتى، فيليب - تاريخ العرب (مطوَّل). نقله إلى العربية إدوارد جرجس وجبرائيل جبور، دار الكشاف للنشر والطباعة، بيروت، ١٩٦١م.

١٧- حسن إبراهيم حسن «دكتور»- تاريخ الإسلام السياسى. . . النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٦٧ (أربعة أجزاء).

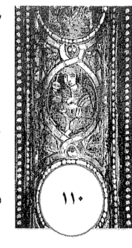
١٨- تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب. النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٩- سعيد عبد الفتاح عاشور «دكتور» - الحركة الصليبية. الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م. (جزءان).

٢٠- السيد الباز العرينى «دكتور»- الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م). النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.

٢١- صابر محمد دياب: سياسة الدولة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط. عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٣.

٢٢- فازيليف، أ. أ. - العرب والروم. ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٠م.



٢٣- متز، آدم - الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى. ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م (جزءان).

٢٤- محمد جمال الدين سرور «دكتور» - سياسة الفاطميين الخارجية. دار الفكر العربى، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

٢٥- مختار باشا إلهامى «اللواء المصرى» _ كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية. ط. أولى، ١٣١١هـ/ ١٨٩٣-١٨٩٤م.

جـ- المقالات والأبحاث:

٢٦- حسن إبراهيم حسن

-The Relations Between Fatimide in North Africa and the Ummayyads In Spain During the 4th Century A.H (10th Century A.D).

منشورة بمجلة كلية الآداب، جـ. القاهرة، العدد العاشر، ديسمبر، ١٩٤٨م.

٢٧- حسين مؤنس "دكتور" - المسلمون فى حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، عدد مايو ١٩٥١م.

٢٨- أحمد مختار العبادى- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، المجلد الخامس، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

د- المراجع الأجنبية:

1- Camb. Med. History, England, 1913

2- Encyc. Brittanica. Ed. By William Benton. Chicago, 1960, 24 vols. + vol. Of world Atlas.

3- Aly, Mohammed Fahmy - Muslim Naval Organization in the Eastern Mediterranean from the 7th Century A.D.

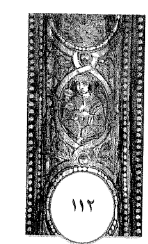
4-Muslim Sea-Power in the Meditteranean.

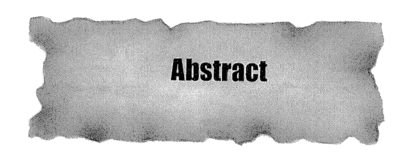
5- Benjamin of Tudela - The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela. Tr.&Ed. By Asher, New York, 1840 (2 vols.)

6- Goitein, S.D. - Studies on Islamic History and Institution. Leyden, Brill, 1968.


١١١


المحتويات


١١٢



This work dwells upon the history of Sicily from the Islamic conquest in 212H. till the end of Islamic rule in 484 H. The relations between this island and the Fatimid, Abbasid, and Ummyad Caliphates are clarified.

On the other hand, the author handles the relations of Sicily with the Western Powers, involving the Byzantine State, the Italian City States, and the Franks in Gaul. The cultural, economic, and social achievements of the Muslims in Sicily are equally highlighted.

Dr. Saber Diab



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

Medieval History



Sicily between East and West



Dr. Saber Diab

Publisher



94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo

tel : 22752794 . Fax : 22752735

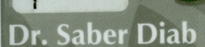
www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of **History,** Archaeology and Civilization



Sicily Under Islamic Rule: From The Norman To Arab Conquest


Dr. Saber Diab

